الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولي الشعراوي

قل هو الله أحد

إثبات وجود الله ووحدانيته

دار الكتب العلمية
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد


منتدى إقرأ الثقافي
للكتب (كوردى - عربي - فارسي)
www.iqra.ahlamontada.com

الشيخ الامام داعية الإسلام
محمد متولى الشعراوى

إثبات
وجود الله ووحدانيته





الطبعة الاولى

آيـــة
و
دعـــاء

﴿ وَضَرَبَ لنَا مثلاً ونسَى خلْقَهُ ؛ قالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أنْشَأَهَا أوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ « صدق الله العظيم »

« اللهم إيمانا بك وتوجها إليك ، نسألك عزيمة التوكل عليك والرجاء منك ، وأن يكون عملنا هذا خالصا لوجهك الكريم » ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد :

« **إن خير ما يقدم الشيخ هو كتابات الشيخ** » وما أكتبه الآن من سطور ، ليس لتقديم الشيخ ، وإنما لتقديم هذه الترجمة العربية لهذا الكتاب .

الترجمة العربية لهذا الكتاب ، الذى تمثل فصوله منهجاً جديداً فى إثبات وجود الله ووحدانيته ، عالمية الفكرة ، أمر تأكدت منه ، وأنا أقرأ فكر الشيخ متولى الشعراوى مترجماً إلى الإنجليزية ؛ فقد كنت أحس بأنى أقرأ الشيخ الشعراوى على الرغم من تغير اللغة .

وجلوسك إلى الشيخ يريحك كثيراً ؛ إذ تحس أن روحًا شفافة تقترب منك وتسكن ، فتشعر بالسكينة . فهو رجل عالم « ملهم » ولا شك ، فى زمان قل فيه العلماء « الملهمون » ولا أظن أن الاخوة السعوديين يطرونه وهم يسمونه « الإمام » الشيخ محمد متولى الشعراوى .

كنت أقرأ للشيخ قبل أن أترجم هذا الكتاب . إلا أننى – لكى أترجمه – جمعت ما بوسعى جمعه من كتب لأتعرف على طريقة تعبيره عن أفكاره ؛ وتأكد لى أنها مما يمكن تسميته « طريقة السهل الممتنع » بحق . فصعَّب هذا من مهمتى ؛ إذ أننى سأتولى ترجمة الكتاب إلى العربية وليس العكس . وإن كنت فى العكس أضعف من أن أُوَفَّى .

عرضت الترجمة الأولى على الشيخ فأثنى عليها ، والحمد لله ، ولم يصحح لا ألفاظاً قليلة كيما تبدو أكثر مناسبة . وبعدها دونت الترجمة بهذا الشكل : النص العربى فى مقابلة النص الإنجليزى . ولكننى - إكراما للغة القرآن الكريم ؛ وانتهاجًا نهج الدكتور ثروت عكاشة فى ترجمته لبعض مؤلفات جبران خليل جبران - رأيت أن نبدأ بالنص العربى ؛ فيصير النص الإنجليزى تابعاً .

وكنت أرى فى بعض الفقرات (فى النص الإنجليزى) شيئا شبيها بالبتر فكنت أضيف ما يتطلبه السياق العربى ؛ إذ كنت حريصا - كل الحرص - على أن تبدو الترجمة وكأنها الأصل .

وعند قراءة الترجمة على الإمام الشيخ ، كانت له بعض الشروح والتعليقات ، فرأيت - إكمالاً للترجمة - أن أضيفها إلى متن الترجمة العربية ؛ هذا ، إذا لم تكن تتعارض مع السياق ، وأحياناً كنت أضعها فى الهامش تتمة للصورة .

وأيضاً ، كانت ترجمة بعض الآيات (فى الأصل الإنجليزى) غير دقيقة ؛ ومن ثم لا تؤدى المعنى المراد ، فرأيت أن أستبدل بها الترجمة الإنجليزية - التى كتبها مولانا عبدالله يوسف على - يرحمه الله - فترجمته أكثر دقة « وتوفيقاً » . وكنت أبقى على الترجمات الأخرى لأنها كانت تؤدى المعنى وإن كانت لم تبلغ دقة ترجمة مولانا عبدالله يوسف على .

رأيت ترقيم فقرات كل موضوع حتى يتسنى لقارئها سهولة الاطلاع على ما يقابلها فى النص الإنجليزى الذى عنينا بترقيمه أيضاً للغرض ذاته .

لم أضف إلى النص الإنجليزى إلا كلمتين اثنتين[1] . وتناولت الفقرة (د - D) من الموضوع ١٥ ، وأيضاً تناولت الفقرة (جـ - C) من الموضع ١٠ بالتصحيح ، وكذلك الفقرة (أ - A) من الموضوع ١٣ بالتصحيح . هذا ، ولا أخفى أن :

أ - الغرض من وراء ترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، هو التأكد من أن ما كتب فى النص الإنجليزى هو ما قصده الشيخ لغرض قضية إثبات وجود الله ووحدانيته .

ب - هذا الكتاب يمثل إضافة - بل ضرورة ملحة - لدارسى الدعوة الإسلامية إذ يمكنهم من عرض أفكارهم العربية فى لغة إنجليزية سليمة ، قوية ورصينة ؛ مع وجود النص العربى بجوارها تتمة للفائدة .

ويتضح لنا بعد الترجمة أن الأيدى التى ترجمت ما قاله الشيخ فى كتاب كهذا ، كانت أيدياً أمينة ما أمكنها . وأحمد الله - سبحانه - أن ترجمة هذا الكتاب جاءت فى توقيت مناسب حيث أننى أقوم الآن بدراسة الإسلام

---

(١) آثرت استخدام كلمة (ALLAH) بدلاً من كلمة (God) فى الأصل الإنجليزى ، وذلك وفق ما قاله « ورتبات » فى قاموسه (العربى - انجليزى) بأحقية (الله) ؛ وأيضاً لأن كلمة الله هى الاسم العربى للذات المقدسة ، وهى أشمل وأدق لفظاً من كلمة (God) . وكلمة (God) تحمل من الظلال الوثنية ما لا يفى بالمعنى المطلوب وهو الإله الحق . ومما يؤسف له أن مولانا عبد الله يوسف على قد خانه التوفيق فى استخدامه لكلمة (God) بدلاً من كلمة ALLAH ، فى ترجمته لمعانى القرآن الكريم .

وأشير أيضاً إلى أنه عندما ترد كلمة God فى هذا الكتاب فإنها لا تنصرف إلى الذات المقدسة وإنما إلى أى إله مُدَّعَى من دون الله .

وربطه باللغة الإنجليزية (فيجتمع الدين مع اللغة) ؛ وإن كنت أجد صعوبة فى الالتحاق بكلية أو معهد يسهل لى ما أريده من دراسة الإسلام فى أسلوب منهجي ، يخدم الدعوة إلى الله . « اللهم إنك أمرتنا من أنفسنا بما لا يكمل إلا بك ، فأعنا على أنفسنا بما يرضيك عنا » ويعلم الله كم أنا بحاجة إلى دعوة لى من أخ مسلم عن ظهر الغيب ؛ يغفر لى بها ربى البدوات ، ويقيل بها العثرات .

و ﴿ الحمدُ للَّهِ الذى هَدانا لهذَا ،
وما كنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أنْ هَدانا اللَّهُ ﴾ .

٨ / ٩ / ١٩٨٨ — محسن إبراهيم الدسوقى على

على هامش الترجمة

بقلم الدكتور فتحى أحمد عامر
وكيل كلية الآداب - جامعة الزقازيق

أطلعني ولدى الطالب الأديب : محسن إبراهيم الدسوقى على : ليسانس آداب من قسم اللغة الانجليزية ، بجامعة الزقازيق على صحائف كتبها شيخنا التقىّ النقىّ فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى مترجمة إلى الانجليزية بأقلام مفعمة بروح الإيمان .

وأراد لها ولدى « محسن إبراهيم الدسوقى على » ترجمةً بقلمه هو إلى العربية ومن ثم فهى ترجمة الترجمة ، ليستوثق من إصابة النَصّ الانجليزى كبدَ فكر الشيخ ، وأنه لم يحد عنه قيد أنملة ، وأنه جاء مرآة عاكسةً لهذا الفكر الإسلامى الذى يُراد .

فعكف ولدى « محسن » على هذا العمل الشائق الشاق بإخلاص وحبّ ، ورغبة فى الثواب ، وحسن المآب .

ولقد كان أمينا فى حفاظه على النصّ الإنجليزى ، لم يضف إليه إلا شذرات قليلة هنا وهناك ، تجعله متكامل البناء ، لتجىء الترجمة إلى العربية ، مشرقة الأسارير ، نابضة بالحركة والحياة .

وكان أمينا منصفا كذلك حين أشار في مقدمة ترجمته ، إلى أن مقابلة لنصّ الإنجليزى بالنص العربى ، أو مقابلة النص العربيّ بالنص الإنجليزى عمل سبق به باحث فذّ هو الدكتور ثروت عكاشة في ترجماته لبعض روائع جبران خليل جبران .. « النبيّ » و « حديقة النبيّ » ..

وكان أمينا للمرة الثالثة ، حين حيّا دقة الترجمة التى قام بها مولانا عبدالله يوسف على ، يرحمه الله ، وحين أعلن عن توافر النوايا الحسنة لأصحاب الترجمات الأخرى لفكر هذا الشيخ الجليل .

وكما أراد ولدى « محسن » لنفسه أن يضطلع بعبء هذا العمل ، وهو جدّ خطير ، أراد لى أن أضطلع بعبء تقديمه إلى روّاد الثقافة الإسلامية ، والفكر الإسلامى ، وهو عمل أشدّ خطورة ، وأبلغ من أن يقوم به شخص ضعيف مثلى .

ووجدتنى أقرّر حقيقة ماثلة لعارفى الشيخ الشعراوى ومريديه ، وهى أنّ فكره هو أولى بتقديمه ، وأنه لا يقدم الشيخ الشعراوى غير الشيخ الشعراوى . أما نحن التلاميذ فجدير بنا أن ننساق وراء التأثرية التى تحفز هممنا إلى الحديث والكتابة حول هذا الفكر المتوقد اللمّاح .

فأحاديث وكتابات الشيخ الشعراوى تجذب انتباه الدارسين وأهل الفكر والنظر ، وبخاصة فى مجال إعمال العقل حول الإقناع بوجود الله عزّ وجل ، فى مواجهة الملحدين وأهل الزيْغ ، وفى مجال التذوق البلاغى ، ونظم الكلمات المعجز فى الآيات القرآنية ، وهو ذلك النظم الذى وقف عنده وقفة متأنية عميقة الإمام عبدالقاهر الجرجانى فى كتابيه الجليلين « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ت ٤٧١ هـ .

فكلماتى إذن ليست تقديما - وما كان لها أن تكون كذلك - وإنما هى تأثر واستجابة .

والتأثر والاستجابة يتيحان للقلم الصادق المفعم بروح الإيمان أن يسجل خواطره التى استجاب من خلالها لفكر الشيخ الشعراوى ، ولكل فكر فى الإسلام ، ومن ثم عنونت لهذه الصفحات بهذا العنوان « على هامش الترجمة » ..

وأحسبنى لم أخرج بما كتبت فى جملته عما وعيته سطراً سطراً ، وكلمة كلمة فى ترجمة ولدى « محسن » ..

فالحواسّ الخمس الخارجية ، يضاف إليها حاسّة سادسة فى التركيب الداخلىّ للإنسان ، إذْ يحسّ من داخله بأن وراء هذا الكون إلهاً واحداً يؤكد هذا الإحساس بالفطرة ما ذهب إليه الفلاسفة القدماء بوحى الغريزة من أن هناك شيئاً وراء الطبيعة ، فاندفعوا اندفاعا تلقائيا إلى معرفة كنهه وحقيقته ..

فهم لم يعقلوا أن هذا الكون يخلق نفسه بنفسه ، بكل ما فيه من كائنات حيّة ، بل لا بدّ من قوة تخلقه ، وتهيىء له سبيل الحياة ، لغاية قد يصل العقل البشرى إلى تحديد بعض سماتها ، ويعجز عن تحديد البعض الآخر منها ؛ وفى قدرة العقل البشرىّ على تحديد بعض سمات الغايات من هذا الخلْق وعجزه عن التحديد فى الوقت نفسه ما يضيف برهانا فطريا جديدا على أن هذا الكون لا يستطيع أن يخلق نفسه بنفسه ، لعجز فطرىّ فيه ، بل لا بدّ أن يكون وراءه قوة خالقة ، لا يصيبها الكلال أو العجز ، قوة تحيط بهذا الكون علما وقدرة ، ولا يحيط بها هذا الكون فى صفة من صفاتها التى تتنزّه عن النقصان .

فقطعة اللحم لا يمكنها أن تنضج نفسها بنفسها ، بمعزل عن علاقتها بالنار والماء ، والأيدى ..

والبذرة لا يمكنها أن تصبح شجرة باسقة ، ذات ظلال وثمار ، بمعزل عن علاقتها بالأرض ، والماء والشمس والهواء ..

هذه العلاقات التى تدخل بنا فى أطر العلوم الحديثة ، لا بدّ وأن تكون هناك قدرة تنسّق بين جزئياتها وعناصرها ؛ قدرة عالمة بطبائع الأشياء ، تدرك الكليات والجزئيات ، ليتم لهذا الكون وجوده المعجز ، وتناسقه البديع الذى يدل على مبدعه .

كل هذا عمل فطرىّ يحسّ به الإنسان من داخله ، سواء استند فى تأكيده إلى منطق أرسطو ، أو إلى منطق الملاحظة والتجربة الذى تعتمد عليه الدراسات الإنسانية الحديثة .

انظر مثال الشيخ :

« لو أغلقنا باب هذه الحجرة ، ثم دّق الجرس ، فإننا نستدلّ من هذا على أن شخصا ما يقف بالباب – وهنا إدراك عقلى بالعلم – فإذا ما بدأنا نسأل أنفسنا : مَنْ بالباب ؟ رجل أم امرأة ؟ شاب أم شيخ ؟ أبيض أم أسود ؟ يحمل أخباراً حسنة أم سيئة ؟ وهنا إدراك عقلىّ بالجهل .

ومع الإدراك العقلى بالجهل يجىء التصوّر والتكهن والخيال ، وهذا ما ضلّ فيه وبه بعض الفكر الفلسفى الذى لا يريد أن يتوقف ، وأن يقرّ بالعجز ، وبأن هناك منطقة من كنْه الأشياء لا يمكنه أن يسبُر غوْرها وأن يكتشف حقيقتها ، على الرغم من وجودها .

والعقل البشرى فى مسيرته الطويلة يكتشف ويكتشف مستقبلاً ، إلا

أنه مع ذلك سوف يظل عاجزاً عن الإحاطة بجميع الأشياء ، وإدراك العلاقات بين جزئياتها وعناصرها .

وعلى سبيل المثال : هناك أمراض أدرك كنهها عقل هذا العصر ، واستطاع أن يشخّص علاجها ، أمراض لم تكن مدركة من قبل ، وهناك أمراض حدّد كنهها فى تلك الآونة ، ولم يستطع العقل أن يشخّص علاجها .. وهناك أمراض لم تكتشف بعد ، قد يكون فى إمكان العقل أن يكتشفها ، ويكتشف علاجها ، وقد يعجز عن معرفة خاصية من خواصّ ما هو كامن فى دنيا الأمراض ، ودنيا الأدوية .

فلو أنّ الفكر الفلسفى توقف أمام هذه الحقيقة الفاصلة ما سبح فى عالم الميتافيزيقا ، ولاحترم الفطرة التى خلق عليها الإنسان ، هذه الفطرة التى ترغّب العقل فى السعى خارجه ، بحثا عن دليل على وجود الله ، والتى كشف عن طبيعتها القرآن فى الإنسان ، فى قوله : ﴿ ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] .

وفى قوله : ﴿ وإذْ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهمْ : ألستُ بربكمْ ؟ قالوا : بَلَى ، شهِدْنا أنْ تقولُوا يوم القيامةِ : إنا كنَّا عنْ هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنّا ذريَّةً من بعدهمْ ، أفتهلكنا بمَا فعلَ المبطلُونَ ؟ ﴾[2] .

يقول الشيخ الإمام : وتسمى هذه الحادثة « ميثاق الذرية » فآدم قد

---

(١) سورة الزمر : ٣

(٢) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣

عرف الله لا عن عملية عقلية ، وإنما عرفه مباشرة ، وجهاً لوجه ، ثم عهد إلى آدم أن ينقل إلى ذريته هذا العلم « علم الشهود » ولكنّ الغفلة حالت دون نقله إليهم .

وفى الآيتين اعتذاران لا أساس لهما من الصحة ، الأول هو النقل الغافل لعلم الشهادة ، والثانى هو الاعتذار بالمثل السيىء .

فالغفلة كانت أول حفرة يقع فيها بنو آدم ، ثم أتى جيل جاهل بتعاليم الله ، ومن بعده جاء جيل مذنب بكلا الذنبين ، الجهل ، وتقليد الآباء .

فالإنسان مؤمن بوجود الله بالفطرة ، حتى ولو كان كافراً ، ويسوق ولدى المترجم مثالاً حياً من واقع حياتنا التى نعيشها ، وهو ما حدث فى الحرب العالمية الثانية ... إذ وجد « ستالين » أن الفلاحين الذين جمعهم للدفاع عن بلادهم ، لم يبدوا استعداداً لخوض المعارك ، وتساءلوا : فى سبيل مَنْ يساقون إلى الموت ؟ الحزب أم الثورة ؟ فاضطر أن يسلّم لهم بأن يعلنوا إيمانهم بالآخرة ، وأنهم يموتون كشهداء فى سبيل الله .

ولقد أعلن « جاجارين » أول رائد من رواد الفضاء الروس ، عندما حلّق بسفينته فى الأجواء العليا : « فتشت عن الله فلم أجده » . إذن هو يعلن على الملأ أن الله موجود ، ولكنه لجهله لم يستطع أن يراه بحواسّه القاصرة .

« فما الذى يدفع الإنسان ، وقد تحّرر من عناده ومكابرته ، إلى أن يدعو : يا الله : يا الله . إن ما يدفعه إلى ذلك قوة نفسية عميقة الجذور تكمن فى ضمير كل إنسان ، ولهذا فهو يدعو : يا الله ، إذ لا وجود له إلا بالله ، ولا وجود له بغير الله ، وإلا فمن يحميه من دون الله ؟!! »

إن العناد والمكابرة هما اللذان يضلاّن المرء ، ويحولان بينه وبين الطريق التي يجب عليه أن يسلكها » ..

والقرآن نفسه لم يخلق أدلة جديدة على وجود الله ، بل أشار إلى أدلّة مخلوقة ، والناس غافلون عنها ، أو جاحدون إيّاها ، أو مكابرون أمامها . إن هذه الأدّلة بين أيديهم ، وفي ذوات أنفسهم ، وفي الكون من حولهم ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[3] .

وقبل هذه الآية مباشرة : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ ، وبعدها مباشرة : ﴿ **وفى السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ ﴿ **فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ .

القضية إذن قضيةٌ موضوعية ، وعودةٌ إلى الفطرة الأولى التي خلق الله الناس عليها : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[4] .

وبعد عن الذاتية التي تُعْمى صاحبها عن النظر والاستدلال ، والتعمق في كنه الأسباب والمسببات ، والعلل والمعلولات ، وفي القرب من الذاتية ، والبعد عن التجرد والموضوعية يكمن الخطر الخطير وراء فساد العقول والضمائر ، وانتشار العلل والأمراض النفسية التي تطيح بكل حضارة يكتشفها عقل الإنسان .

وإلا فدلّوني من زاوية العقل المجرد عن عنصر من عناصر الأشياء ، أو كائن من الكائنات الحية ، خلقه العقل البشرى خلقا!! إن جميع العناصر

---

(٣) الذاريات : الآيات : ٣٠ - ٣٣ .

(٤) الروم : ٣٠ .

والكائنات مخلوقة ، من قبل إيجاد هذا الإنسان ، والعقل يكتشف من هذا العالم المخلوق رويداً رويداً ، ولا يزال هذا العالم المخلوق لم يكتشف بعد تلك حقيقة يسلّم بها العقل فى موضوعيته ، وتجرّده ، ويكابر دونها فى ذاتيته وأنانيته وصفاته الدنيا .

والقرآن يؤكد ذلك بقسم غليظ بالسماء والأرض فيقول : ﴿ إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ وانظر إلى هذا الالتفات البلاغى الذى يحكم على الإنسان بالغفلة والجهل والتنطع والمكابرة . فهل ينكر الإنسان أنه ينطق ويفكر ؟ فكيف ينكر الآيات التى تغطى وجه الأرض ، وتنتشر فى بساط السماء ، دالة على وجود الله عز وجل ، وكاشفة عن ارتباط هذه القوانين الكونية ، برباط السبب والمسبّب والعلّة والمعلول ، حتى تندرج بنا إلى السبب الأول ، الذى كشف عنه فيلسوف اليونان « أرسطوطاليس » أو السبب الأعلى كما يقول الشيخ الإمام .

وإلا فهل تتوقف الأسباب والمسببات عند مجال محدّد لا تتجاوزه فى نظر هذا العقل ؟

هل يتوقف الجنس البشرىّ عند آدم ؟ وماذا وراء آدم ؟ ومن خلق آدم ؟ هل خلقته الطبيعة المادية التى يتحدث عنها الماديون ، أصحاب الفلسفة المادية ؟ هل خلق نفسه بنفسه كما يتحدث بذلك الزنادقة الملحدون ؟ هل خلقه قانون الصدفة وحده ، كما يذهب إلى ذلك بعض علماء الغرب ؟

وهذه البذرة التى يحتضنها الطين ، ويسقيها الماء ، ويغمرها الهواء حتى تصير شجرة باسقة ، تزهر وتثمر ، وتورق وتخضرّ ، مَنْ خلقها ؟ مَنْ وراءها ؟ مَنْ كفلها ؟ هل هى الطبيعة المادية ، أو قانون الصدفة ، أو خلقت نفسها ؟

إن الفلسفة المادية تجنح إلى الميتافيزيقا ، والميتافيزيقا شطحات خيالية كثيراً ما تبتعد عن الحقيقة ، وقانون الصدفة كثيراً ما يتخلف ، والشيء الذى يخلق نفسه محض هراء ، وإلا فدلّونى عن ضفدعة خلقت نفسها وكيف تمّ ذلك ؟

هذا فى الوقت الذى لم يتخلف فيه قانون خلق الإنسان ولا يرد علينا هنا خلق آدم من غير أبوين ، ولا خلق عيسى من غير أب ، فإن هذين المثلين من باب الإعجاز الذى يتفرّد به الله العلى القدير .

ولم يتخلف قانون النبات ، ولم يتخلف قانون الكواكب والمجرات والشموس وما إليها ، وإلاّ فدلّونى كيف يتخلف واحد من هذه القوانين ؟

الموضوعية إذن هى الحكم الفصل ، إن أراد هذا العقل أن يكون منصفا - وهو يستطيع - فإن فى مقدوره أن يتأمل أدلة وجود الله ببصيرة واعيه ، وهى جلية بين دفتى هذا القرآن ، وبين جنبات هذه النفس ، وفى أعماق هذا الكون .

وحيّا الله الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى ..

د . فتحى أحمد عامر

وكيل كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الجمعة : ١٢ من صفـر ١٤٠٩ هـ

٢٣ من سبتمبر ١٩٨٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن معرفتنا بوجود الحق – سبحانه وتعالى –

هي أولاً وقبل كل شيء أمر فطرى غريزى .

وهي ثانياً شيء عقلى ، يدرك بالعقل ،

وهي ثالثاً شيء تجريبى ، يكمن أصله فى الحس والإدراك .

١ - الوسائل الداخلية والخارجية للإدراك

(أ) للإنسان وسائل محددة للإدراك الحسى - كالسمع والبصر والشم والتذوق واللمس - التى تربطه بالعالم الخارجى وتعْلِمُهُ به . وللإنسان كذلك قدراته الخفية ، التى بها يستطيع فهم نفسه وفهم ضميره . وهكذا يكون للإنسان فتحاته على كل من العالَم من خارجه ونفسه التى بين جنبيه . وتسمى الفتحات التى تنفتح على العالم الخارجى بالحواس ؛ وتسمى الفتحات التى تنفتح على النفس بالبصيرة أو الحدْس ؛ ويكمن هذا الحدْس فى الإنسان دونما معرفة منه : كيف يعمل هذا الحدس ؛ وكيف امتلكه فى ذاته .

(ب) ولكى نبين هذا ، لنتأمل أغراض الإدراك ، فالإنسان يرى الصور والألوان ، ويسمع الأصوات ، ويلمس الأشياء ، ثم هو يتذوق ويفرق بين الحلو واللاذع ، وهو كذلك يشم العطور التى تريحه والتى تثيره : كل هذا يربطه بالعالم الخارجى . وهناك وسائل إدراك أخرى لا ندركها بهذه الطريقة .

فقد يشعر إنسان ما بالجوع ، فبأى وسيلة من وسائل الحس أحس بجوعه ؟ هل أحس بجوعه بعينيه أم بأنفه أم بلمسه أم من خلال قدرته على السمع ؟ من الواضح أنه لم يحس بالجوع بأى من هذه الوسائل ؛ ومع ذلك يشعر الإنسان بالجوع .

(جـ) إذن فلابد أن هنالك طرقًا للإدراك بداخلنا بالإضافة إلى تلك الوسائل التى تتيح لنا إدراك العالم من حولنا . فقد يحب شخص شخصاً آخر أو يكرهه ؛ فكيف ، إذن ، يدرك الإنسان حبه أو كراهيته للآخرين ؟ ترى بأية حاسة ؟ وإذا كانت تلك الإدراكات موجودة ، فهناك وسائل أخرى للإدراك ليست داخلة فى نطاق الحواس الخارجية .

ومن أجل توضيح هذه الحقيقة ، عبر العلماء عن أنفسهم بدقة ، عندما تحدثوا عن الحواس ؛ إذ تحدثوا عن خمس حواس خارجية . وهذه الدقة توحى بأن هناك حواسًا أخرى غير خارجية ، تربط الإنسان بعالمه الداخلى ؛ ذلك العالم الذى لا يخضع للعقل القائل : بأن على الإنسان أن يكون له من وسائل الإدراك ما يربطه بالعالم الخارجى ؛ بينما يظل عالمه الداخلى غير مدرك . ولكن ، فعلى العكس مما يقوله العقل ، يجب على الإنسان أن يدرك ما بداخله من أول وهلة .

٢ - الفطرة تشهد بوجود الله

(أ) إن وسائل الإدراك الداخلية تؤكد إدراكنا الفطرى بوجود الله ؛ وقد يفتقد هذا الإدراك الفطرى الدقةَ ، ولكنه يشهد بوجود قوةٍ ما تكمن وراء هذا الكون ذى الإدراك الحسى ؛ إذ يكمن الاسم الله وراء الإدراك الفطرى ، ولكن (الله) هل يدرك بالسمع ؟ فعلى أى شخص أن يخبرنا بأن القوة المدركة بهذه الطريقة ، تسمى (الله) . وكيف هذا ؟ وأى اسم لا يأتى إلى الوجود عن إدراك فطرى[1] .

---

(١) أقول (المترجم) : هذه لمحة بلاغية جداً ، إذا لم تكن الكلمة (الله) قد أتت من إدراك فطرى داخلى ؛ فلا شك أنها أتت من غير هذا الإدراك الفطرى ، مما يؤكد وجود الله - ولو بلغة الفلسفة على الأقل الآن فى مقدمة هذا البحث .

فما هو إذن دليلنا على وجود هذه القوة ؟ فأنا لا أعرف شيئاً عنها ؛ إذ هي تكمن خارج سيطرة العقل .

(ب) وعندما بدأ فلاسفة العالم القديم – لا سيما الإغريق الذين شغلوا أنفسهم بهذا الموضوع بصورة كبيرة – عندما بدأوا دراسة علوم ما وراء الطبيعة نرى أنهم كانوا يحاولون – وكما توحى كلمة « ما وراء الطبيعة » – يحاولون النظر فيما وراء الطبيعة المادية . فمن ذا الذى أخبرهم بأن ثمة شيئا هنالك فيما وراء الطبيعة عليهم أن يبحثوا عنه ويدرسوه ؟! كيف عرفوا أن هناك شيئاً يبحثون عنه فيما وراء المادة ؟ ..

ولا يعنينا ما إذا كانوا قد فشلوا أو نجحوا فى بحثهم هذا ؛ بل إن ما يهمنا هو الحقيقة المتمثلة فى اندفاعهم للنظر فيما وراء الطبيعة – تلك الحقيقة المجردة فى أنهم وجدوا الدافع ليبحثوا فيما وراء الطبيعة . ودافعهم للبحث عما وراء الطبيعة لابد وأن يكون إدراكاً فطريًا أو وعياً غريزيًا ، شهد بالحقيقة القائلة بأن هنالك شيئاً ما وراء الكون المادى ، ثم عمل على أن يعيها .

ولقد أدرك العلماء أن الكون لا يستطيع خلق نفسه بنفسه ، بل لا بد من قوة وراءه تخلقه (وتقوم عليه) ؛ ومن هنا بدأ العلماء فى البحث عن هذه القوة ، ووجهوا جل تفكيرهم فى البحث عنها . ولو لم يكن هناك مثل ذلك الإدراك الفطرى « بوجود قوة ما وراء العالم المادى » ، لما شغل العلماء أنفسهم هكذا ، ولما اندفعوا لتحريها .

(جـ) وعلينا ، أيضا ، أن نعى مرحلة النضج العقلى التى وصل إليها المفكرون الذين وضعوا البراهين على وجود الله . فمن المؤكد أنهم لا بد وقد بلغوا عمراً معيناً عندما حاولوا وضع البراهين على وجود الله .

فلا يحتمل شخص ما – بصورة جدية – ممارسة علم المنطق قبل أن يصل إلى سن العشرين .

ولا بد وأن يكون المفكرون الذين يقدمون البراهين على وجود الله ، فى العشرين أو الثلاثين من عمرهم على الأقل . ولكن ، على أى أساس كانوا يعبدون الله – سبحانه وتعالى – قبل بحثهم عن دليل وجوده « وحصولهم على هذا الدليل » .

(د) إن بحثهم عن مثل ذلك الدليل ، هو – فى حد ذاته – دليل خفى على اعتقادهم بأن هنالك إلهاً موجودًا . وهم قد بحثوا عن الله سبحانه ، نتيجةً لهذا الاعتقاد المسبق بوجود الله . وهكذا فإن ما يقود العقل إلى البحث عن دليل وجود الله ، هو الإيمان الطبيعى أو الفطرى الكامن فى النفس – ذلك الإيمان بأن وراء العالم المادى قوةً ما .. قوة يجب البحث عنها إذا أريد إيجادها . (حاضرةً فى الذهن) .

٣ – الفلسفة غالبا ما تخلط بين العقل والخيال

(أ) لم يكن الفلاسفة راضين بأن يقفوا فى حدود مقدرة عقولهم ، أو فى حدود إدراكهم الفطرى وشعورهم الغريزى بهذه القوة العليا . فلقد أتعبوا أنفسهم بمحاولتهم ادخال شىء غير ذى صلة ببحثهم ذلك .

ولكن ما هو ذلك الشىء الذى حاولوا ادخاله فى بحثهم ؟

عندما أصرت مؤهلات الإنسان الفطرية على مناقشة وجود الله ، استمر

الإنسان فى طلب الأدلة التى على ضوئها يستنتج وجود الله . والإنسان إن لم يكن مقتنعاً بأن هناك مثل تلك القوة العليا ، لما بذل قوته فى طلب دليل يثبت وجود الله ؛ وعلى عقل الإنسان أن يرضى بهذا . ثم بعد ذلك - أى بعد تسليمه بوجود الله - قد يتلقى الإنسان معرفة هذه القوة من القوة ذاتها .

ولنتوقف الآن محاولين توضيح هذه النقطة . إن الذى أتعب الفلاسفة والمفكرين - فى محاولاتهم لمعرفة هذه القوة العليا - هو خلطهم بين العقل والخيال (أى خلطهم بين عمل العقل وعمل الخيال) ؛ فهم يدرجون الخيال فى عمل العقل ، ويخلطون بينهما معًا . ولكن ، كيف يحدث هذا؟!

ان العقل يستطيع أن يستنتج وجود أى قوة توجد فيما وراء العالم المادى - هذا إذا كانت تلك القوة الخفية فى مقدرة الذهن . إلا أن الذهن - مع ذلك - لا يستطيع بنفسه أن يخبرنا باسم هذه القوة أو باستعلائها أو صفاتها أو مطالبها منا - أو ما هو ذلك الشيء الذى سوف تمنحنا إياه ، إذا نحن خضعنا لها .

(ب) والعقل لا يخبرنا بمثل تلك الأشياء . واسمح لى أن أضرب مثالاً أبين به ما أقصد إليه : إننا لو أغلقنا باب هذه الحجرة ، ثم دق الجرس . فإننا نستدل من هذا على أن شخصا ما يقف بالباب . هذا الاستدلال هو العقل . ونحن إذا توقفنا عند قولنا : إن هناك شخصا ما بالباب ، لما كان ثمة اختلاف بيننا . أما إذا بدأنا نسأل أنفسنا : من بالباب ؟ رجل أم امرأة ، شاب أم عجوز ، أبيض أم أسود ، يحمل أخباراً سارة أم سيئة ؟

عند هذا التساؤل لا نلبث أن نختلف : إذ ليس هذا هو عمل العقل ، بل هو عمل الخيال .

(ج) إذن ، فإن ما يستنفد قوى الفلاسفة هو أنهم يسعون جاهدين لتعقل الله وتصوره ، بينما مثل ذلك التصور الذى يذهب إلى ما وراء كل ما هو وجدانى وبدهّى - يمثل ذلك التصور راسخ فى الذهن (إذ الإيمان بالله أمر فطرى يولد به الإنسان) . أقول هذا لأن المرء يلفق فى خياله أشياء لا توجد متفقة ولا منسجمة مع أهدافه المحسوسة المألوفة . وهذا شبيه بالحالة التى لا يكون للناس فيها خبرة بشىء ما ؛ بينما نحن نريد أن نمدهم بتصور لذلك الشىء ، فنقول : إنه مثل كذا وكذا من الأشياء ، وبمعنى آخر فنحن ننقل ما لا يعرفه الناس إلى شىء يعرفونه . ولو كان الفلاسفة راضين ببقائهم داخل حدود العقل ، لما كانت هناك مشكلة . إذ كانوا سيتركون التخيلات العبثية ، ويقبلون ما أرسلته إلينا رسالات السماء ، وساعتها تكشف القوة عن ذاتها ، وتقول للإنسان : اسمى الله ، ولى من الصفات هذه وتلك ، وأطلب هذا وذاك ممن يعبدوننى .

ولمن أطاعنى فإننى سوف أفعل كذا وكذا ، ولمن لم يطعنى فإننى سوف أفعل له كذا وكذا ؟

(د) ومثل هذا يكون الرد على أولئك الذين يزعمون وجود أى إله (آخر) غير الله . فمثلاً نحن نسأل الذى يعبد الشمس ، ما الذى تأمره به الشمس ليفعله ؟ وأى التعاليم ينبغى عليه أن يتبعها ؟ ونحن - فى واقع الأمر - لا نجد تعاليم تأمرنا بها الشمس .

فماذا تقدم الشمس لمن يخضع لها ، وماذا تقدم لمن لا يخضع لها ؟ إذن ، ليست هناك لدى الشمس أى خطة للثواب أو العقاب على الإطلاق . إن ما يفسد عبادة بعضهم للشمس هو ذلك الفشل التام للغاية المعبودة (أى الشمس) فى أن توجه تابعيها ، أو أن تدلهم على اتباع أى منهج . إذن ،

فكيف يستطيع أى إنسان أن يعبدها أو أن يخضع لها ؟! « وإله بلا منهج لا يستحق أن يعبد » .

وهكذا نرى أنه لا بد من تعليمات ، أو جزء من التعليمات لتلك القوة ، التى يجب علينا أن نتعرف عليها ، ونؤمن بها على أنها حقيقة ، مثلما نؤمن بالله رب العالمين[1] . وعندما لا تقدم الشمس أية تعليمات لمن يتبعها ، علىَّ إذن أن أقول : إنها ليست إلهًا بحق ؛ إذ لم يعلن إنسان من نفسه أنه رسول الشمس .

٤ - القرآن المجيد لم يزد دليلاً على وجود الله

(أ) العقل ، إذن ، شىء قائم خارج نطاق الشعور والوعى ؛ فالشعور والوعى أمران فطريان سابقان على الفكر والعقل . والفطرة ترغب العقل فى السعى خارجه بحثًا عن دليل على وجود الله ؛ وهكذا تقود الفطرة العقل إلى أن يُقدم على مهمة شاقة،مهمةٍ تأخذه إلى ما وراء حدود العقل . وأحياناً ، نجد الفلاسفة ، وهم يدركون هذا التحديد - يقولون : إنه يكفى أن نؤمن بوجود قوةٍ عليا ما ، نحن مطالبون بالخضوع لها . بيد أننا يجب أن نجيب بأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل هذا ؛ فهو لا يعرف ماذا فى إرادة هذه القوة - ماذا يرضيها ، وماذا يغضبها ؟! وهذا الجهل بإرادة تلك القوة العليا قد أدى بالفلسفات العقلية - التى تتفرع عن الفلسفة المهتمة بما وراء العالم المادى - قد أدى بها إلى الضياع فى المتاهات ؛ حيث لم تصل

---

(١) والقرآن الكريم هو أصدق وسائلنا فى معرفة الله ، وأبين رسالة ؛ وهو المنهج الذى يحوى تعليمات الإسلام من أوامر ونواه فى افعل ولا تفعل . فالله قد كشف عن منهجه بنزول قرآنه !! فلم يبق إلا اتباعه .. (المترجم) .

مدرسة – أى مدرسة – إلى نهايات مدرسة أخرى . وحيث ان فلاسفة المدرسة الواحدة ينتهون إلى طرق مختلفة فى فهم تلك القوة العليا . لذا فبحوث الفلسفات العقلية لا تستطيع أن تصل إلى الاستنتاجات التي تقبلها كل العقول .

(ب) وهكذا ، فعندما نزل القرآن المجيد ليكشف عن الحق سبحانه ، نراه لم يأت بدليل على وجود الله . (فالبراهين الدالة على وجود الله موجودة ، حتى من قبل نزول القرآن) . هذا وإن كان القرآن قد دحض عبثية اتخاذ شركاء لله . كما أكد على وجود القوة العليا على أنها أساس سابق (لنزول القرآن) لا يقبل الجدل . وهذه البدهية ليست محلا للنقاش ؛ بل ما يجب مناقشته هو وجود إله واحد أمام وجود آلهة متعددة . ولكل إنسان عقل ، وهذا العقل له من المظاهر العالمية القوية الشيء الكثير ؛ وقد تقنع هذه المظاهر العقل بالتسليم بوجود قوى عليا عظيمة متعددة . وقد يقبل البشر الافتراض القائل بأن هناك إلهًا للسماء ، وإلهًا للأرض ، وإلهًا للريح ، وإلهًا للنجوم . وهكذا يتم تقسيم الكون بين آلهة مختلفة ؛ بيد أنه ليس من المحتمل أن يفترض العقا أن العوالم المختلفة قد خلقت دونما آلهة ؛ أو خلقت دونما قوة عليا ما .

(جـ) لم يثبت القرآن وجود الله على أنه مناقض لوحدانيته جل شأنه . وما نحن بحاجة إلى جعلهما يبدوان متناقضين ؛ فوجود الله حقيقة لا تقبل الجدل ؛ أى جدل ! فهي أساس سبق ثبوته حتى من قبل نزول القرآن – إلى حد أن الكفار الذين عارضوا الدعوة إلى التوحيد ، قد أجابوا عند سؤالهم أسئلة قاطعة عمن هو الإله خالق السموات والأرض ، وخالقهم

(أى الكفار) ، أجابوا بقولهم : الله .

حقاً ؛ حتى الذى يزعم أنه لا وجود لله ؛ فإنه يفترض - عند نفيه - وجود ما ينفيه وينكره ؛ ونحن بدورنا نسأله : متى جاءت إلى عقلك فكرة الإله الذى تنكر وجوده ؟ كيف نشأت فى عقلك فكرة وجوده التى تفندها ؟

والتأكيدات الواضحة على وجود الله ، لم تأتِ إلى عقولنا لكى ننكرها (بل جاءت لتلتقى مع التسليم الفطرى ، بوجود إله لهذا الكون) . ولو أجهد شخص ما نفسه فى محاولته إنكار وجود الله ؛ لكان عليه - فى الوقت الذى يحاول فيه إنكار وجود الله - أن يؤمن بوجوده ؛ ولكنه - وقد وجد الله خافيا عنه (وهو المؤمن بالحسيات دون غيرها) - يبدأ فيقول : إنه لا وجود لله !

(د) ويوجد فى كل لغة اسم يشير إلى الإله . ففى العربية ، نجد أن الاسم المستخدم هو الله ، وفى كل لغة هناك كلمة ما تشير إلى نفس المعنى (الله) . ووجود مثل تلك الكلمات يقودنا إلى إدراك الحقيقة القائلة : بأن الكلمات تصاغ فى اللغة (أى لغة) فقط عندما توجد معانيها فى عقول أولئك الذين يستخدمونها . ولا يمكن صياغة كلمة ما ، لا يوجد لها معنى فى الذهن ؛ فالمعانى تسبق الكلمات : إذ يولد المعنى أولاً ثم تصاغ الكلمة التى تحمل هذا المعنى[1] . ومن هنا ، فوجود كلمة ما فى معاجم لغة ما ، ووجودها كذلك فى استخدام أولئك الذين يتحدثون تلك اللغة ، لهو دليل على أن لهذه الكلمة إشارةً ما .

أما أن يوجد الشىء المشار إليه فيما بعد ، ثم ينكره من ينكره ، فهذا أمر آخر .

---

(١) مما يدل دلالة قاطعة على وجود الله . (المترجم)

٥ - وحى الله لآدم

(أ) من المعلوم أن الذى يثبت قضية ما سابقٌ على الذى ينفيها ؛ فالذى يقوم بالنفى إنما ينفى وجود شىء ما . ولا بد وأن يكون وجود مثل ذلك الشىء سابقاً لنفيه . هذا ، بالاضافة إلى أن وجود كلمة ما فى معجم لغة ، يثبت وجود الشىء الذى تشير إليه تلك الكلمة . وهكذا فنحن نقول : إن فكرة ما - لا سيما إذا كانت وجدانية المنبت - قد تصبح واضحة بما يكفى لخلق تأكيد عقلى عليها . وهذا التأكيد العقلى يقود المرء إلى القوة التى يشير إليها هذا التأكيد ، تلك القوة التى يكتسب المرء منها المعرفة مباشرة ؛ ومن ثم تصبح علاقة العقل بالقوة العليا فى نهاية الأمر ، تصبح مسألة إحساسات،ومن ثم تصبح هذه العلاقة من أقوى الأدلة على وجود تلك القوة العليا (الله) .

(ب) إن القرآن المجيد يخبرنا بأن الله قد خلق آدم - رجلاً دونما طفولة ؛ رجلاً لم يكن طفلاً أبداً ، فهو لم يكبر حتى يصبح رجلاً ، بل خلق رجلاً . وجد آدم نفسه رجلاً بالغاً . وأسجد الملائكة أنفسهم أمامه ؛ وهو قد خُلِقَ من تراب ، ولا ماضى له . وعلى هذا كان هذا المشهد وحياً كاملاً لآدم . وكان من مهمة آدم أن ينقل هذا المشهد - كما أوحى إليه - إلى أولاده ؛ وعليهم بدورهم أن ينقلوه إلى أحفادهم عبر الأجيال كلها . إذن فالكلمة التى تسمى الله فى جميع اللغات ، إنما تأتى إلى الوجود لأن معناها قد وجد فى عقل الذى أعلنها أولاً وهو آدم عليه السلام .

وعندما يذكر لنا القرآن المجيد أشياء ليس لها وجود مسبق فى عقولنا ،

نراه يعطينا مجرد تقريب لهذه الأشياء حتى يتسنى لنا فهمها ؛ وذلك بأن يمنح هذه الأشياء بعض المعنى . والقرآن يذكر الفردوس ومباهجه ؛ إلا أن هذه المباهج تختلف - بالطبع - عن مباهج هذه الدنيا . ولكن الله عندما يخبرنا عن الفردوس[1] ، نراه يخبرنا بلغة أولئك الذين يخاطبهم ، فى كلمات وضعوها عند اشارتهم إلى تصوراتهم العقلية لما قد يوجد فى الفردوس .

والله - سبحانه وتعالى - يخبرنا بأن فى الفردوس ما لا تعرفه عقول الناس ولا قلوبهم . إذن ، فكيف ومتى يكشف الله عن كلمات تحمل معنى الأشياء التى لا تعرفها عقول الناس ولا قلوبهم .

(ج) إذن ، فرغم أن الله يعطينا صورة للفردوس ، إلا أنه لا يعطينا حقيقته ! إذ أن حقيقة الفردوس هى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولقد وضعت اللغات - فى الواقع - استنادًا إلى كل ما هو مرئى محسوس . وللغات من الكلمات ما جاء ليصف ما يخطر على العقل . والفردوس ليس من الطبيعة المعروفة لنا ؛ لذا فنحن نفتقد الكلمات التى تصفه : أى شىء هو . وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يتحدث عن ﴿ مَثَلُ الجنَّةِ التى وُعِدَ المتَّقُونَ ﴾ .. ﴿ مَثَلُ الجنَّةِ ﴾ وليس ﴿ الجنَّة ﴾ . وذلك لأننا لا نملك تلك الكلمات التى يتحدث الله إلينا من خلالها ، ليخبرنا أن هذا الشىء أو ذاك مما يوجد فى الجنة .

إذ لو أنه - سبحانه - قال : « إن هناك شيئاً ما فى الفردوس » ؛ لكان للكلمة التى تعبر عن ذلك الشىء معنى خاص محدد يفهمه الناس ؛ وعلى هذا يجب أن تكون الكلمة معروفة ومما يخطر على العقل[2] البشرى .

(١) ننبه إلى أننى آثرت استخدام كلمتى الجنة والفردوس بمعنى واحد ؛ إذ هما فى الانجليزية مترادفتان غالبًا ؛ وتكونان فى العربية مترادفتين على سبيل المجاز (المترجم) .

(٢) العقل أو القلب - إذ هما هنا يأتيان بمعنى واحد . (المترجم) .

(د) ولا يمكن التفكير فى شىء لا وجود له أصلاً ، ومن ثم فإدراكنا لله لا بد وأن يرجع بالتاريخ إلى خلق آدم ؛ عندما كان خَلْقُه أمام عينيه خبرةً مشهودةً له . وكان عليه أن ينقل معرفته الواضحة (عن شهادة لا عن غيب) إلى أحفاده . ولكن ، بينما تزداد عملية نقل المعرفة عن المصدر بعدًا ، كلما زاد الناس فى غفلتهم .. فبينما ينسى إنسان شيئاً ما ، نجد إنساناً آخر يهمل شيئاً آخر ، وهكذا يستمر الأمر ، إلى أن يمسى المعنى (المراد نقله إلى الأحفاد) غامضاً غير واضح . إذن ، فالناس يبدأون فقط فى الانسجام مع العالم الظاهرى ، إلى أن يحدث شىء يجعلهم يستدلون أكثر على وجود شىء ما وراء ذلك العالم الظاهرى ، يخاطب عقولهم ثانيةً فيفكرون مرة أخرى .. ومن ثم تبدأ عملية أخرى وهكذا .

٦ - أرسل الله الرسل ليزيلوا الغفلة

(أ) مهمة رسل الله هى أن يمحوا الصدأ عن النفس : ذلك الصدأ الذى تسببه هذه الغفلة . ولأن إدراك البشر لمشيئة الله يضعف ، لذا يرسل الحق سبحانه وتعالى الرسل إلى الناس . تأمل الآية التالية من القرآن المجيد ، الذى هو رسالة الله - سبحانه وتعالى : ﴿ **وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدمَ من ظُهورِهمْ ذُرّيَّتَهُمْ ، وأشْهَدَهُمْ عَلى أنْفُسِهِمْ : ألستُ بربِّكُمْ ؟ قالوا : بلى . شهدنا** ﴾ . وتسمى هذه الحادثة (ميثاق الذّرّيَّة) ، ولقد شُرِحَت فى الحديث النبوى بالتفسير التالى : انه عندما خلق الله آدم وسواه جمع ذريته كلها ، وقال لهم : ﴿ **ألَسْتُ بِربِّكُمْ** ﴾ ، أجابوا ﴿ **بَلَى شَهِدْنا** ﴾ . إذن فالمسألة هى مسألة خبرة مباشرة وفى الحال .

فآدم قد عرف الله لا عن عملية عقلية ، وإنما مباشرة ووجها لوجه .
ولقد عُهِدَ إلى آدم أن ينقل إلى ذريته هذا العلم (علم الشهود) ، ولكن الغفلة حالت دون نقله كما رأينا .

(ب) ولننظر ثانيةً – فى الآية التى تتناول هذه المسألة : إنها تقول : ﴿ وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدمَ من ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأشْهَدهَمْ على أنفُسِهِمْ ، ألَسْتُ بربِّكم ؟ قَالُوا : بَلى شَهِدْنا ﴾ إلى أن يقول سبحانه : ﴿ أن تَقُولُوا .. ﴾ وهذا دليل على أن هناك عهداً قد وثق . فالآية تقول : ﴿ أنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيامَةِ ، إنَّا كُنَّا عن هَذَا غَافِلِين ﴾ . هذا من ناحية ، ثم تقول الآية : ﴿ أوْ تُقولُوا إنَّما أشْرَكَ آباؤُنا من قَبْلُ ، وكنَّا ذريَّةً من بَعْدِهِمْ ﴾ ﴿ أفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَل المُبْطِلُونَ ؟ ﴾ . وهذا من ناحية أخرى .

إذن ، فإن لدينا اعتذارين لا أساس لهما من الصحة .

الاعتذار الأول : هو النقل الغافل لعلم الشهادة ؛ والثانى : هو الاعتذار بالمثل السيىء . فالآية تقول : ﴿ أن تَقُولُوا يَوْمَ القيامَةِ ، إنّا كُنَّا عن هَذَا غَافِلينَ . أو تَقُولُوا : إنّما أشركَ آباؤُنا من قَبْلُ ﴾ .

المحاولة الثانية فى التخفيف هى التوارث . وإذا تتبعنا التوارث بالتسلسل فسوف ننتهى بتقرير أن الخط البشرى لم يقل ما من شأنه أن يَحُول دون نقل علم الشهود إلى ما يليه من البشر ؛ فآدم هو الذى كان يمثل أول الخط البشرى – وآدم كان شاهداً .

كانت الغفلة هى أول حفرة يقع فيها بنو آدم ؛ ثم بعد ذلك أتى جيل جاهل بتعاليم الله (من أوامر ونواه) ؛ ومن بعده جاء جيل آخر مذنب بكلا الذنبين : الجهل وتقليد الآباء ، فهناك أولاً جيل جاهل ، ثم هناك من يقلدهم ، ويقول : ﴿ إنّما أشركَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ ، وكُنّا ذريَّةً مِنْ بعْدِهِمْ ﴾ .

(جـ) والقرآن – عند إرسائه لهذه القضية – يعتبر وجود الله حقيقة لا تقبل النقاش ، فهى ليست محلاً للنقاش ولا للجدل ؛ إذ ليس من العقل أن يستفهم عن وجود الله . وعندما يقدم شخص ما دليلاً يطعن به فى وجود الله ، فإنه – بدليله هذا – يعترف بالتشكيك فى طعنه . (فالدليل على وجود الله ، هو طلب الدليل على وجود الله) . إنه مثلما يذهب إنسان ما إلى طبيب ، وعندما يصف له الطبيب دواءً ، يتوهم أنه مريض وأن هناك علةً ما ، أما عندما لا يصف الطبيب دواءً ، يستنتج ذلك الإنسان أن كل شىء على ما يرام ، وأنه بصحة جيدة .

إذن ، فعدم تقديم دليل على (وجود) شىء ما ، هو أساس لاستنتاج أن ذلك الشىء واضح جداً ، فما هو بحاجة إلى دليل . أما عندما يُقَدَّم دليلٌ على (وجود) شىء ما ، فإنما يقدم لغرض آخر تماماً ؛ فلا يكون تقديم دليل على وجود الله استفهامًا عن وجود الله ، وإنما هو لتعظيم الله وإجلاله .

(د) ومن ثم لا يبقى هنالك شك حول وجود الله ؛ وما يبقى من شك فإنما هو حول إمكانية تعدد الآلهة . إذ يبدو لمعددى الآلهة أن العالم بحاجة إلى قوى مهيمنة عديدة ، ومن الصعب على معددى الآلهة أن يتصوروا أن يتولى أمر هذه القوى المهيمنة العديدة إلهٌ واحد أحد . إذن ، قد يحدث شك كهذا ولكن ليس هنالك من شك حول وجود إله . فالشك لا يكون حول وجود إله ، وإنما حول إمكانية تعدد الآلهة ؛ لا أن ينسحب إلى امكانية وجود إله لهذه القوى . فالفطرة تقر بوجود إله ، ولكن نقطة الخلاف هى : أهو إله متعدد أم هو إله واحد ؟ [1] ودائماً ما يتكرر السؤال : هل هناك آلهة غير الله ؟ وسبب هذا السؤال أن الله عندما يرسى ظاهرة كونية ما تؤكد وحدانيته ، نجد سؤال من يسأل : هل هناك آلهة سوى الله ؟ إذن ، فالشك يكمن فى امكانية وجود شركاء لله ، ولا يكمن – أبداً – فى حقيقة وجود الله .

(هـ) وعندما تأتى الغفلة والجهل ليستقرا بداخل الإنسان ، ويصبح البعض متعجرفاً ومتكبراً ومفتوناً بعقله ، ومن ثم يرفض هذا البعض أن يتبعوا من يقولون لهم انهم رسل الله ، وانهم يحاولون اكتشاف حدود العقل والفطرة ، ثم الانتفاع بها فى واقع الحياة . ورغم أن هؤلاء المفتونين بعقولهم يقرون بوجود قوة عليا ، إلا أنهم يتوقفون قليلاً عند مطالب هذه القوة من الناس ؛ وهم لا يعرفون شيئاً عن هذه القوة ، ولا عن مطالبها منهم .

---

(١) مثلما وجدنا بعض الأمم – قديماً – تستبعد امكانية وجود إله واحد أحد ؛ فزعمت أن تكون أكثر من إله : إله لكل ما هو خير ، وإله لكل ما هو شر . والأمة الإغريقية ليست ببعيد !! (المترجم) .

« وهم يتعجلون فى أنهم يحاولون التكهن بما تريده هذه القوة دون أن تكشف القوة ذاتها عما تريده »[1] .

(و) وهكذا نرى أول خطوة فى سبيل معرفتنا بالله ، هى الوعى الطبيعى والفطرى بوجود قوة عليا (وراء هذا الكون المادى) ، والخطوة الثانية هى شىء من التعقل ، وفيها تدفع المشاعر الفطرية الفكر (العقل) إلى تقديم البراهين التى تكشف عن وجود الله من خلال الاستنتاج . وادراكنا لمثل هذه البراهين وتناولنا لتفصيلاتها وتفسيرها ، إنما يتمثل فى أن نجد أن لهذه البراهين دليلاً تجريبياً عملياً ، نصل إليه من خلال الحواس .

٧ - البشر يسمون ما يستطيعون تسميته

(أ) لنتناول نظرية الأسماء ؛ الناس يسمون ما يستطيعون تسميته ؛ ومن صفات الإنسان أن يفعل ذلك . فكل شىء لابد له من اسم : الأطفال والاختراعات وكل شىء . والناس قد اعتادوا أن يطلقوا أسماءً على كل شىء ما كان بوسعهم ذلك . فهذا أمر له من العالمية ما لا ينكره أحد . والحق - سبحانه وتعالى - يقدم لنا آية كريمة يبين فيها حقيقة ذاته ؛ تلك الحقيقة التى لا تقبل المناقشة ، ولا هى أصلاً محل للمناقشة . والله يتحدى الذين يكفرون به أن يطلقوا اسم (الله) على ما عدا الله ، وذلك عندما يشغلون أنفسهم فى نشاطهم البشرى المعتاد ؛ ألا وهو تسمية كل شىء باسم له

(١) « وفى القرآن تكشف القوة عن منهجها فى واقع إفعل ولا تفعل ، دونما افتئات من البشر » قلت : وجاء القرآن ليكشف عن منهج هذه القوة » . قال الشيخ الإمام : « نعم ! فالقرآن هو المنهج الذى يبين الغاية من خلق الإنسان وكيفية سلوكه فى الحياة ، وبيان ما يصلحه وما يفسده » . (المترجم)

يميزه عن غيره . فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ربّ السّموات والأرض وما بَيْنَهُمَا فاعْبُدْهُ واصْطَبِر لعِبادَتِهِ . هَلْ تَعْلَمُ لهُ سَمِيًّا ؟ ﴾ . إن هذه الآية تسأل عما إذا كان المرء يعرف أى شىء (عدا الله) يسمى (الله) ؛ وهى تسأل أيضاً عما إذا كان هناك شىء (من دون الله) يسمى الله . والاجابة عن مثل هذا السؤال لا بد وأن تكون : لا . أبداً ، لم يحدث وأن سمى الكفار والمشركون أى شىء (سوى الله) باسم (الله) . » ورغم هذه الحقيقة المعلنة ، فالله قد تحداهم أن يسموا غيره بالاسم (الله) » . وهم - ورغم كفرهم وتبجحهم - لم يفعلوا ذلك ؛ وعلى وجه اليقين بعد أن قدم القرآن تحديه للكافرين ، وبعد أن سأل عما إذا كان الضالون والكافرون قد سمّوا أى شىء (سوى الله) باسم (الله) . ولم يفعنوا شيئاً من هذا رغم كثرة عددهم وطغيان كفرهم . فلم يحاول أى كافر أو ضال أن يقول : « إننى سوف أتحدى الله وأسمى ابنى (الله) » ؟!

(ب) ورغم كثرة عدد المجترئين والمفترين على الله ، إلا أن هذه المحاولة لم يثبت أن أحداً حاولها فضلاً عن أن تخطر له ببال . ما الحكاية ؟ وما الغرض مما نقوله ؟ ولكى نجيب عن هذا السؤال لا بد وأن يبحث المرء عن إجابة نفسية . ولكن ماذا نقصد بإجابة نفسية ؟ صحيح أن الضالين والكافرين مجترءون على الله ، إلى الحد الذى ينكرون فيه وجوده . إلا أن الله - عندما يسأل عما إذا كان هناك شىء يحمل اسمه - لا يجد من بين هؤلاء الضالين والكافرين من يزعم ذلك مجرد زعم . فهؤلاء المفترون لا يستطيعون أن يقدموا ما يفيد حدوث مثل ذلك الزعم ، إذ ليس لديهم

إذن فحاجتهم اللاشعورية تبطل عنادهم الذى طالما رددوه ؛ وذلك عندما تفشل جميع وسائلهم وسبلهم الأخرى ، وهم يجأرون داعين يا الله يا الله . فالمسألة لم تعد مجرد جدل عبثى ، وإنما هى مسألة الحياة نفسها . ولا أحد يسلم بحياته رخيصة[1] ولا أحد يقدم حياته سدى . وهذا هو السر الكامن وراء صراخ من يصرخ داعياً يا الله يا الله من الملحدين ؛ وقد ألجأتهم البلوى إلى الصراخ والدعاء .

ما الذى يدفع الإنسان – وقد تحرر من عناده ومكابرته – إلى أن يدعو يا الله يا الله ؟

إن ما يدفعه إلى ما يقول هو قوة نفسية عميقة الجذور تكمن فى ضمير كل إنسان . ولهذا فهو يدعو يا الله ؛ فلا وجود له إلا بالله ولا وجود له بغير الله . وإلا فمن يحميه من دون الله ؟

إن العناد والمكابرة هما اللذان يضلان المرء ويحولان بينه وبين أن يسلك الطريق التى ينبغى عليه أن يسلكها .

٨ – التوجه بالتأمل نحو الكون

(أ) يقدم القرآن كل ما لديه من برهان ، ليبين وحدانية الله . ومن ثم بدا وجود الله – وبطريقة غير مباشرة – على أنه نتيجة لهذا البرهان .

---

(١) مثلما حدث فى الحرب العالمية الثانية ؛ إذ وجد ج . ستالين أن الفلاحين الذين جمعهم للدفاع عن البلاد لم يعلنوا عن استعدادهم لخوض المعركة . ففى سبيل من يموتون ؟ الحزب ؟ أم الثورة ؟ فاضطر ستالين أن يسلم لهم بأن يعلنوا إيمانهم بالآخرة ، وأنهم يموتون كشهداء فى سبيل الله .. وهكذا هزم الإلحاد فى وقت كان يتمنى لو كان انتصر فيه !! .. (المترجم) .

إن الذى يعرف قيمة ما يبيعه ، يحاول دائما أن يجذب انتباه زبونه (إلى ذلك الشيء الذى يبيعه) ، أما الذى يشك فى قيمة ما يبيعه ، فإنه يحاول جاهدًا أن يحوِّل انتباه زبونه (عن عيوب ما يبيعه) ؛ حتى يتسنى له بيعه . وعندما يريد إنسان بيع شيء ، فإنه يخبر زبائنه بأن يفحصوه بدقة ، وأن يتعرفوا عليه تماما بأن يأخذوه ويجربوه - عندما يحدث شيء كهذا نعلم أنه (أي البائع) على ثقة من قيمة ما يبيعه . علام يبرهن هذا ؟ وعلام يدل ؟

إن القرآن يخبرنا أن الله يريد الناس أن يتفكروا فى الكون عن كثب . والله - سبحانه وتعالى - يسأل ما إذا كانوا لم يلاحظوا ما بالكون ولم يدققوا فيه ولم يتفكروا (وهو بسؤالهم يحثهم على أن يتفكروا فى الكون جيداً) .

(ب) وهكذا ، فالقرآن يبين أنه ليس بحاجة أكثر من أن يوجه انتباهنا إلى الكون . إذ لو فكرنا فى الكون جيداً ، فإننا سنصل - بصورة طبيعية - إلى الفهم الصحيح (لله وللكون) . ولو كان صحيحاً أن هناك آلهة متعددة ، لما سألنا الله أن نتنبه ، أو نعى ما حولنا بعقولنا أو أن نفكر فيه بعمق ؛ ولما جعلنا نلاحظ ما حولنا من أشياء[1] . (إلا أن هذا لم يحدث) والله يرشدنا إلى التفكير فيما حولنا[2] ، فقط إذا كان مؤمناً[3] من أن الكون يقنعنا بألوهية إله واحد أحد له . وبدهى ، أن الله لم يكن ليوجهنا إلى التفكير فى هذه الأشياء إذا كانت تحول دون إيماننا به .

---

(١) وهكذا يدحض القرآن أسطورة (شركاء الله) ، وينقضها نقضاً (المترجم) ..

(٢) من أشياء.

(٣) يقول الشيخ الامام تعليقا على كلمة (مؤمناً) « والله نفسه هو أول من شهد لذاته ، واسمه المؤمن ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إله إلا هُوَ .. ﴾ » .

أى حقيقة يعارضون بها وجود الله . كما أنه ليس بوسعهم التمسك بأى حقيقة فى محاولتهم تسمية أى شىء (سوى الله) باسم (الله) . إنهم - فى الحقيقة - يخشون استخدام اسمه سبحانه فى تسمياتهم . ولكن ! أى شىء يمنعهم من أن يسموا أى شىء (سوى الله) باسم (الله) إن لم يكن مانعهم هو الخوف ؟ ترى ! أى شىء (سوى الخوف) يوقفهم ، فلا يسمون أى شىء (سوى الله) باسم (الله) ؟ وهم الكافرون بالله المجترئون عليه ! إلى حد أنهم ينكرون وجوده . والله - رغم كل هذا - لا يمنعهم من أن يعلنوا الكفر به ، إلا أنه سبحانه يتحداهم - نعم يتحداهم - أن يسموا أى شىء (سوى الله) باسم (الله) . والكفار والملحدون والضالون لا يسمون - رغم افترائهم - أى شىء (سوى الله) باسم (الله)[1] ؛ ولا يمنحون اسم الله إلا لله وحده . وهذا فى حد ذاته دليل على أنه لا حقيقة - مهما كانت - وكذلك لا شىء - فى مشاعر الإنسان الفطرية أو فى ضميره - يستطيعان الوقوف فى وجه هذه الحقيقة ؛ حقيقة : **﴿ هل تعلمُ له سَمِيًّا ؟ ﴾** .

(جـ) وإن كان من الملحدين من يقول مستسخراً « إننى لا أومن أن بإمكان هذه القوة أن تُبقِى علىَّ أو أن تأخذ بى .. ها .. ها » . وهنا ظاهرة نفسية تكذب من يقول بهذا الزعم من الناس . إذ أن من ينكرون وجود قوة عليا - عندما تجابههم أى معضلة تفشل فى حلها كل حيلهم ووسائلهم - يصرخون وربما فى غير وعى باسم القوة التى كانوا ينكرون قائلين : يا الله .. يا الله .

---

(١) ويحضرنى الآن ما قاله ميخائيل جورباتشوف الزعيم الروسى عندما سأله الصحفيون عند زيارته الأولى لأمريكا لعقد قمة واشنطن ، عن أمنياته من القمة ؟ قال : « الله وحده يعلم إلى أين ستنتهى القمة » وعندما أعيد عرض تصريحاته فى التلفاز الروسى ، حذفت هذه العبارة ! (المترجم) .

(جـ) والقرآن ، من ثم ، يبين لنا وجود الله وقوته . وبامكاننا معرفة الكون ؛ وذلك إذا توافر لنا من وسائل الإدراك ما يربطنا بالعالم الظاهرى (الخارجى) . ولنتأمل وسائل الإدراك الحسى - التى نثق فيها - لنتأملها وحدها دونما خوف ودونما قلق على مشاعرنا الفطرية أو على أصولنا النفسية الداخلية . فقط ، لنتأمل ما يربطنا بالعالم الخارجى . إنه الواحد الحق سبحانه وتعالى - يكشف عن القضية قائلاً : ﴿ **وفى أَنْفُسِكُمْ أفلاَ تُبْصِرونَ ؟** ﴾ ثم يخبرنا : ﴿ **وفى الأَرْضِ آياتٌ للمُوقِنِين** ﴾ . فمن يبحث فى داخله سوف ينتهى به بحثه إلى الإيمان والفهم ، ومن يَجُبْ العالم الخارجى سوف ينتهى أيضا إلى الإيمان والفهم .

إذ الفهم يكمن فينا وفى العالم من خارجنا أيضاً سواءً بسواء ؛ وعندما يكون تصورنا سليما ، فأينما اتجهنا سنجد الحقيقة ماثلة للعيان : والعديد من آيات القرآن الكريم يؤكد هذا : ﴿ **وفى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرونَ ؟** ﴾ ، ﴿ **وفى الأَرْضِ آياتٌ للمُوقِنِين** ﴾ و ﴿ **سَنُرِيهِمْ آياتِنا فى الآفاقِ وفى أَنْفُسِهِمْ حتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنّه الحقُّ ، أو لَمْ يكْفِ بِرِبِّك أنه عَلى كُلِّ شىءٍ شهِيدٌ** ﴾ .

٩ - يمتلك الإنسان بداخله قوام الطبيعة برمتها

(أ) على من فقدت مشاعرهم الداخلية القدرة على الفهم : عليهم أن يتأملوا العالم من حولهم (والتأمل فيما هو خارج النفس ، هو الطريقة الثانية للفهم والإيمان - وهو لغة الحواس الخارجية) وساعتها سيصلون إلى حقائق لا تقبل الجدل . فعلى من يكون من أولئك الذين لم يستطيعوا التأمل فى ذواتهم ، عليهم أن يدركوا أين هم من هذا العالم الخارجى . ونجيب

على من يكون من هؤلاء بأنه - إذا ما تأمل ما حوله - سوف يرى نفسه مستفيداً من المخلوقات جميعها . فالعالم كله - بحيواناته التى تلى الإنسان رتبة ، ونباتاته التى تلى الحيوانات ، والطبيعة غير العضوية (الجماد) التى تلى النباتات - كل هذا يخدم الإنسان . وكل نوع من مخلوقات الطبيعة يفوق النوع الذى يليه بطريقة ما ؛ وإلا صارت المخلوقات كلها إلى غير نوعها ، والى صفات غير صفاتها التى تميزها عن غيرها . فللجماد ثقل ، كما أنه يشغل حيزاً من المكان ، ويخضع لقوانين علم الطبيعة . أما النبات فيذهب فى صفاته إلى ماوراء ذلك بطريق واحد (أو بميزة واحدة) ؛ فهو ينمو (والجماد لا ينمو) . إن حقيقة النمو تجعل الحياة النباتية مختلفة عن طبيعة الجماد (أى الطبيعة غير العضوية) . والحيوان - بدوره - يذهب فى صفاته إلى ما وراء النبات ؛ فللحيوان حس وحركة . والإنسان يعلو الطبيعة الحيوانية بما له من عقل وفكر . وَلْنُسَلْسِلْ هذه الأنواع ، فبإضافة نمو إلى الطبيعة غير العضوية ، يحصل المرء على النبات ؛ وبإضافة حس وحركة إلى الطبيعة النباتية ، يحصل المرء على الحيوان ؛ ثم بإضافة عقل وفكر إلى الحيوان ، ينتهى المرء إلى الإنسان أى إلى كائن بشرى سوى .

(ب) وهل تفوق نوع ما من المخلوقات على ما يليه من مخلوقات راجع إلى تفوقه على طبيعة ما دونه ؟ لا[1] . وأنا أفكر ، إذن أنا إنسان ، وبالفكر أنا أعلى من الحيوان . ولكننى - بدون الفكر - أصير جزءًا من الطبيعة الحيوانية .

---

(١) يقصد بـ (لا) أن تفوق أى نوع من المخلوقات لا يعود إلى شىء من عندية أو ذاتيته ، بل الأمر كله إلى الله فى تسخير المخلوقات بعضها لبعض .. (المترجم) .

والحيوانات بدورها تتميز عن النباتات فى أن لها حساً وحركة . وللنباتات - إذا ما فقدت مقدرتها على النمو - صفات مشتركة مع الطبيعة غير العضوية (الجماد) .

(جـ) إذن ، فالإنسان يشارك فى الطبيعة غير العضوية (فى أن له ثقلاً وحيزاً) ، وفى الطبيعة النباتية (فى أن له حيزاً وحساً ونمواً) ، وفى الطبيعة الحيوانية (فى أن له حيزاً وحساً ونمواً وحركة) . وأيضاً هو إنسان بما له من قدرة على التفكير . ولكن! ما الحكمة من خلق هذه المخلوقات ؟ (إنها مسخرة بعضها لبعض) . إن وظيفة كل نوع من هذه المخلوقات مرتبطة بالنوع الأعلى منه . فكل نوع يخدم ما يعلوه من مخلوقات . فالشمس والقمر والنجوم ومياه الأرض - كل هذه الأشياء تخدم كل ما هو أعلى منها رتبة . كما أن الشمس والقمر والنجوم ومياه الأرض - كلها أمثلة لما هو غير عضوى (والتعبير « غير عضوى » لا يشير فقط إلى الحالات العضوية كالسائل والجامد من الأشياء ، ولكنه يشير أيضاً إلى أى شىء ليست له قدرة على النمو العضوى) . وكل ما هو غير عضوى من أشياء يخدم كل ما يعلوه رتبة - من نباتات وحيوانات وبشر -؛ وعليه ، فالطبيعة الجامدة (وإن كانت غير جامدة كما أثبت ذلك العلم الحديث) تخدم أشكال الطبيعة الثلاثة الأعلى رتبة منها . والحياة النباتية لا تمثل نفعاً للطبيعة غير العضوية ، فهى لا تخدم ما دونها ؛ وإن كانت تخدم ما علاها من أشكال من حيوانية وبشرية . والحياة الحيوانية - بدورها - تعمل على تقديم النفع للإنسان . والإنسان هو سيد الكل ، ويستفيد من كل مادونه من أشكال الطبيعة وأنواعها .

(د) والإنسان فى خدمة مَنْ ؟ الإنسان عبدٌ لخالقه ؛ الإنسان إذا لم يجد بغيته فى حال عبوديته لله ، لأصبح وجوده أقل معنى من وجود كل أشكال الطبيعة وأنواعها الأخرى من جماد ونبات وحيوان . وبينما تجد هذه الأنواع وظائفها المناسبة فى أن تخدم الإنسان ، نجد الإنسان وحده من بين جميع المخلوقات لا يجد أى وظيفة يقوم بها (إلا أن يكون عبداً لله) . وينبغى - بل يجب - على الإنسان أن تكون مهمته أعلى قيمة من مهام ما دونه من مخلوقات ، وذلك لأن مهمة كل نوع من مخلوقات الطبيعة أعلى قيمة من مهمة ما يليه[1] من أنواع المخلوقات .

(هـ) إذن ، فدرسنا الأول الذى نتعلمه من الطبيعة هو أننا نرى فيها تسلسلاً ، يكون فيه كل نوع من الأنواع مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بما يليه من أنواع ، فالنوع الأدنى يخدم ما علاه من أنواع (والإنسان هو أعلى الأنواع) ؛ إذن فكل شيء يصب إلينا ، ونحن لا نصب فى شيء . فالإنسان - فقط - من بين جميع المخلوقات ، ينتفع بما عداه من أنواع .

ولكن ، هل يرجع تفوق جنسنا - الذى يخدمه الآخرون - إلى قدرتنا وقوتنا ؛ لا . إن أولى وظائف الإنسان هى فى إيجاد مهمة يقوم بها ؛ إذ يجب ايجاد صيغة (عمل) ما يقوم بها الإنسان ؛ حتى يظل (أعلى) ؛ وما على الإنسان إلا أن يديم اتصاله بهذه الصيغة ؛ وإلا فحياته تفتقد الغرض الذى من أجله كان خلق الإنسان .

---

(١) أى ما دونه من أنواع

١٠ - قانون العلة والمعلول

(أ) لنتناول الحياة من طريق أخرى . نحن - كما نعلم - لا نملك تفوقاً على ما دوننا من مخلوقات إذا ما استندنا إلى قوتنا[١] . نعم ، فأنواع من الطبيعة تفوق الإنسان قوة ؛ وهذه الأنواع - على كثرتها - تقع خارج دائرة سيادته الطبيعية . فالشمس ، مثلاً ، فوق قدرتنا ، وتؤثر فيها كما لا نستطيع السيطرة على الوحوش[٢] . وأيضاً نحن لا نستطيع أن نمسك ببذرة فى أيدينا ثم نفردها فى الهواء ، فتنمو نباتًا . لذا ، وجب علينا أن نتأمل هذه الظواهر ونسأل أنفسنا : من الذى جعلنا سادة هذا العالم ؛ ونحن كما نعلم لا نفوق ما دوننا لا فى قدرة ولا فى قوة .

والفهم الذى نصل إليه هو : أننا لا نُخْضِع الطبيعة ونجبرها على خدمتنا ؛ استناداً إلى قدرتنا . إذن ، علينا أن نبحث عن نظام آخر يعلل سيادتنا للكون ، ويحكم العالم ويعمل فى خدمتنا (فنحن إنما نحكم العالم بتسخير من الله ، وليس قدرة منا) .

(ب) ولننظر نظرة أخرى فى طبيعة السببية ؛ ولكى نقوم بهذه النظرة ، لنتأمل أمراً قد يبدو أكثر بساطة : عندما ينتقل البشر إلى حياة مدنية (مرفهة) ، نجد أن حاجاتهم الأساسية لا تزيد ؛ بل تظل كما هى ؛ فليست هناك حاجات جديدة تجد . وكل ما يطرأ على الحياة ، إنما هو بحبوحة من

---

(١) ، (٢) نحن حين نرى الحيوانات المستأنسة فى خدمتنا ، مسخرةً حيث نشاء ؛ نعتقد أن هذا نابع من قدرتنا وأنه هو الأمر الطبيعى . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هذا تسخير منه - وليس قدرة منا - ولذلك فقد خلق (الوحوش) لترد على أى إنسان يريد أن يدعى أنه قد أخضع ما خلق الله له من أنعام فى الكون بقدرته هو - فليستخدم قدرته مع هذه الوحوش !!

العيش وترف – ليس إلا . فالمدنية لا تأتى بحاجات جديدة للإنسان . وإنما تلبى حاجاته بطريقة أخرى ؛ فلم تستحدث أى حاجة حتى يلبيها . فحاجاته هى هى . وليس باستطاعة الإنسان أن يجد بديلاً للطعام المأخوذ من التربة ؛ فمصدرنا للغذاء كان ولا يزال يخرج من الأرض . (ولم يستحدث الإنسان لنفسه ضرورات جديدة) .

(جـ) وما المدنية وتقدم الحضارة إلا صياغة هذه الضرورات فى صورة أدق وأكثر تهذيبًا . فالإنسان قد اعتاد أن يشرب من زلعة ، وهو الآن يشرب فى كأس ؛ وأيضاً ، عندما يكون الهواء حارًا ، يمكن للإنسان أن يعد من الوسائل ما يتحكم به فى درجة حرارة الجو ، حتى يكون الهواء دافئاً فى الشتاء ، باردًا فى الصيف . إذن ، فالإنسان لم يستحدث لنفسه ضرورات جديدة ، (وإنما أعاد صياغة هذه الضرورات فى صورة أدق وأكثر مرونة وتهذيباً) . وإذا ما أعاد الإنسان تأمل ذاته وحاجاته الحقيقية فى الحياة لأدرك – لتوه – أن كل ما يحتاج إليه ليحيا هو هذه الأشياء : الطعام ، والشراب ، والهواء . وسيجد أن هذه الحاجات محدودة ، وتحكمها حكمة الخالق . فنحن لا نستطيع أن نحيا بدون طعام ، وإن كنا نستطيع أن نظل بدون طعام لمدة طويلة – ولنقل شهراً . وتفسير هذا هو أن الأجهزة المعدة فى جسم الإنسان لاستخدام الطاقة ، بإمكانها أن تختزن الطعام فى صورة دهن (فيما تحت الجلد) . وعندما يجوع الإنسان ، فإنه يستخدم هذا الدهن . وعليه ، فالأجهزة الموجودة بداخل الإنسان أفضل من تلك الآلات الجامدة التى لا حياة فيها (كالسيارة) . إذ عندما ينفد جازولين سيارة ما ، فإنها تتوقف ، وذلك لأنها لا تجد بداخلها أى مصدر للطاقة .. والسيارة من صنع الإنسان !!

(د) أما صنع الحق - سبحانه وتعالى - فيختلف عن صنع الإنسان ؛ إذ يتناول الإنسان الغذاء لغرضين (أو قل غايتين) : فهو أولاً يريد مما يحتاج إليه من غذاء ، أن يحافظ على بقائه حياً فى الوقت الحاضر ، ثم يختزن سعرات الطاقة الباقية فى صورة دهن . وفيما بعد ، عندما يجوع فإنه يستخدم هذا الدهن كغذاء (دونما حاجة ملحة إلى الغذاء الخارجى) . وهكذا فعندما يأتى وقت تناول الطعام - وليس هنالك من طعام - قد يشعر الإنسان بغصة الجوع لمدة نصف ساعة أو ما يقارب ذلك ، ولكنه سرعان ما يفقد رغبته فى الطعام فهو قد طعم من الداخل . وجسمه قد أخذ ما يحتاج إليه من طاقة ، وبإمكانه أن يستمر فى إشباع حاجته من الطاقة من مخزنه الداخلى (تحت الجلد) . ويظل الإنسان ، هكذا ، يتزود بدون توقف . فمع غياب الطعام - تتفتت الدهون لتشبع حاجات الجسد والعضلات ؟

ومخزننا الأخير للغذاء إنما هو فى عضلاتنا .. فى النخاع ؛ وذلك كما يقول القرآن الكريم ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى ﴾ (٤ - مريم) .

١١ - يتفق التملك وطبيعة حاجات الإنسان

(أ) ترتبط طبيعة التملك فيما بين الناس ارتباطاً عكسياً مع درجة الضرورة التى تفرق بين الحاجات الأساسية للإنسان ، حسب أهميتها الملحة له . والحاجات الأساسية تأتى حسب أهميتها : الهواء ثم الماء ثم الطعام . نعم ، قد يكون الطعام احتكاراً لرجل ما ، ولهذا نحن نستطيع أن نظل بدون طعام لمدة طويلة نسبياً ولنقل : شهراً . ومن النادر أن نجد الناس يحتكرون الماء ، ونحن لا نستطيع أن نعيش بدون ماء لفترة قصيرة ؛ أما الهواء .. فنحن لا نستطيع أن نحيا بدونه ولو لفترة قصيرة من الوقت ، لهذا لا يمكن احتكار الهواء ، ولن ينفد .

فهل يرضى الله - تبارك وتعالى - للإنسان أن يجعل الهواء من بين ما يملكه ويتحكم فيه ؟ والهواء هو قوام الحياة ؟!! فهو إذا مُنع للحظات ، يقتل إنسانا . حتى ان المصادر البدائية للماء لا تدخل فى ملك أى إنسان . وقد يتحكم شخص ما فى الماء ، ويختزنه عنده ؛ إلا أنه من النادر حدوث هذا .

أما الطعام فقد يدخل فى ملكية الآخرين ؛ ومن ثم كان لدينا فى مقابل هذا ، مخزن الطعام الذى نستطيع الاعتماد عليه إلى أن نبحث عن مصادر أخرى للطعام . (وهو مخزن الدهن الموجود تحت جلد الإنسان) .

(ب) وهذه العلاقة الطبيعية بين الحاجة والتملك لم تأت نتيجة لبعد نظر الإنسان ولا لذكائه .. أبداً . فالناس لم يدركوا مقدرتهم على اختزان

الطعام .. تلك المقدرة التي منحهم الله إياها ، ولن يدركوها إلى أن يجيء وقت لا يجدون فيه شيئاً يأكلونه[1] .

عرف الإنسان هذه الأشياء فى تاريخ متأخر ؛ وذلك عندما تعلم تحليل الأشياء وتأملها ؛ (وظل الإنسان فى بحثه وتأمله ، حتى أصبحت هذه الأمور واضحة فى أذهاننا ، فلم تعد محل تساؤل أو طعن) .

ولإنسانية الإنسان أهمية كبيرة ؛ فالبشر هم سادة باقى الأجناس ، وما وجود الخلائق الأخرى إلا لخدمتنا ، حتى وإن كانت أقوى منا . وهى لا تخدمنا لأننا أقوى منها .. لا .. فالحقيقة أننا لسنا أقوى من مخلوقات كثيرة ، وهى لا تنقاد لنا لقوتنا ، وإنما لتسخير الله لها حتى تصبح فى خدمتنا نحن البشر .

(ج) وعندما يعمل الإنسان على أن يرفع من شأن نفسه ويحاول إراحتها ، فهو لا يتطور فى حاجاته الأساسية ، وإنما فى الترف الزائد عن الحد (فمثلاً كنا نشرب فى زلعة ، والآن نشرب فى كأس من البللور المزركش - إذن فحاجتى إلى الماء هى هى ، لم تتغير ، فلم أضف لحاجاتى حاجة جديدة ، وما حدث هو أننى أترفت) . ونحن لا نرى الأشجار تثمر كئوساً ، ولا بد من صناعة كئوس لنشرب فيها . وعندما نفكر فى صناعة كأس (والكأس هو ذلك الشيء الصغير البسيط) ، لا نجد الأمر سهلاً ؛ فلا تخلو صناعة كأس بسيط من صعوبات عديدة : من تكاليف ، وبحوث ، وذكاء ، وخبرة ، ومجهود .. كل هذه الاستعدادات من أجل انتاج شيء بسيط لنشرب فيه .

---

(١) وذلك عندما ينفتح لهم مخزنهم الداخلى للغذاء فى صورة دهن تحت الجلد - يحترق فيزود الجسم بسعرات الطاقة اللازمة . (المترجم)

(د) وتخرج جماعة من الباحثين لتتحرى عن المادة المناسبة لصناعة الكأس ؛ فتجرب مواد متنوعة ، وتتعرف على المادة المناسبة لاعطاء الكأس رونقاً وشفافية . فينتهى اختيارهم إلى نوع معين من الرمل . ويسعون بعد هذا إلى صهر حبات الرمل فى آتون الصهر فيتعلمون كيفية صهر حبات الرمل ، وكذلك كيفية التخلص من الشوائب بإضافة هذه المادة أو تلك إلى آتون الصهر . ثم يتم البحث عن مادة تمنح الرمل مرونة . وبعد ذلك يتعلمون كيف يعددون الأشكال التى نريدها ؛ وهكذا تستقدم موارد علمية هائلة من أجل صناعة كوب بسيط نشرب فيه الماء .

(هـ) إذن ، فأنا أشترى كوباً (لأشرب فيه) . وإذا ما أردت معرفة كيفية صناعة الكوب ، هناك من يخبرنى بأن الشركة (الخاصة بصناعة الزجاج) تشترى الرمل من مكان كذا ، ثم تذيبه فى مكان كذا وتضيف من المواد ما يعمل على تنقيته .

وهكذا ، أذهب إلى المكان الذى يجلب منه الرمل ، وأرى الرجال منهمكين فى استخراج الرمل من أماكن تحت الأرض ؛ وأسأل : من أين جاء الرمل ؟ فلا أجد جواباً . إذ بعد كل هذا ، تأتى سلسلة الخلق إلى نقطة تقف عندها ، نعم تتوقف سلسلة الأسباب ، فيد الخالق (والمسبب الأول)[1] قد بدأت عملها .

---

(١) المسبب الأول والأعلى .

(و) وأمر ثانٍ ، مم صنع هذا المكتب الذى أمامى ؟ صنع من الخشب .. والخشب قد نقل إلينا من السويد ؛ ونحن إذا ما ذهبنا إلى السويد وسألنا : كيف يحصلون على الخشب ؟ فلا شك أنهم سيجيبون بأنه يأتى من الغابة ، ولو استقصينا من أين يأتى خشب الغابة ؛ فلن نجد جواباً من أحد . إذن فأى تتابع للسببية [وراء كوب زجاجى أو مكتب خشبى أو قطار حديدى] سوف يستمر إلى درجة لا نجد عندها أسباباً ، وعندما لا نجد أسباباً ، نقول : هنا يكمن السبب الأول ، ولا غرابة فى ذلك (فيد الخالق قد بدأت عملها) .

١٢ - الإنسان هو الوحيد الذى يخرق نظام الطبيعة

(أ) كنا نتحدث عن صناعة زهيدة (وهى صناعة كوب من البللور) . فما عسانا نقول عن صناعة أكثر مهارة ودقة ، كصناعة الكون ذاته ؟ لا سيما وأن صناعة شىء زهيد ككوب من البللور - تستدعى خبرة وقدرة ومهارة من درجة معينة . فماذا تحتاج الأشياء الكبيرة المهمة لصناعتها ؟ من المؤكد أنها تتطلب خبرة وقدرة تتناسبان مع أهمية ودقة ذلك الشىء المطلوب صناعته . ومن ثم يتجه عقل الإنسان إلى البحث عن الصانع ؛ عن خالق هذه الطبيعة . ومن ثم يستنتج العقل أن جميع المخلوقات تتبع نظاماً منتظماً ؛ والإنسان فقط هو الذى يعيش فى فوضى ، أما بقية المخلوقات من جماد ونبات وحيوان فتتبع نظاماً سلوكياً منظماً . وتقوم بمهامها على أتم وجه وأكمله .

وهل الإنسان يقوم على أداء الدور الذى وكل إليه القيام به ؟ .. هنا نجد أن الإنسان هو العاصى الوحيد فى الكون كله . والله - سبحانه وتعالى - يرسى هذه القضية ، عندما يخاطب الإنسان بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أن

اللَّهَ يَسْجُدُ له مَنْ فى السمٰوات ومَنْ فى الأَرْضِ ﴾ ولم يخاطب الله مخلوقاً غير الإنسان بهذا التساؤل . ويتحدث الله عن الشمس والقمر والنجوم والجبال كما يتحدث عن النباتات والأشجار والحيوان . وهكذا تنتقل المناقشة من الجماد إلى الأحياء من نبات وحيوان ، ومن ثم إلى التحدث عن الإنسان .

إذ يقول الله متحدثاً عن الإنسان :

﴿ وكثير من الناس ، وكثير حق عليهم العذاب ! ﴾ .

(ب) وهكذا يميز الله بين البشر وبين غيرهم من مخلوقات . وذلك لأن بقية المخلوقات يقومون بالمهمة الموكلة إليهم . فالجماد وجميع الأحياء من نبات وحيوان - فيما عدا الإنسان وحده - يتبعون قوانين وجودهم ، والإنسان وحده - من بين باقى الأجناس - يشكل طبقة منفصلة عن بقية المخلوقات .

(ج) وهذا ما يستدعى إعمال الفكر . وكيف نحل هذا اللغز ؟ وَلْنَتَّحْ الآن جانبا الحقيقة المتمثلة فى مجىء رسول الله وكتابه المقدس إلينا ، ولنتأمل القضية بشىء من التبسيط :

المخلوقات جميعها تتبع قوانينها بنظام ، والإنسان هو الوحيد الذى يتصرف بخلاف ذلك . فلم نر المجتمعات الحيوانية تشن حرباً على بعضها البعض . ولم نر - أبدًا - الشمس وقد عاندت ورفضت أن تشرق . و نر - أبدًا - البرد أو المطر الخفيف يسقطان من السماء ، ثم يرفضان الذوبان . ولم نر - أبدًا - نباتًا أُحْسِنَ زرعُه ورعايته ثم يفشل فى النمو ولم نر - أبدًا - حيوانا أُحْسِنَتْ تربيته على أن يحمل الأثقال أو على أن يحسن الجر ، ثم يرفض إطاعة الأوامر .

(د) وهكذا الأمر مع جميع المخلوقات ؛ إذ نجدها تفعل ما هو موكل إليها وفق نظام محكم رتيب .. ولماذا لا يسلك الإنسان مسلك بقية المخلوقات ؟ ما هو السبب ؟ إن السبب - كما يقول الحق سبحانه وتعالى - ما هو إلا : ﴿ إنا عَرَضْنَا الأمَانَةَ على السَّموات والأرْضِ والجِبَالِ ، فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْهَا ، وحَملهَا الإنْسَانُ . إنه كانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ .

ومصدر غرور الإنسان هو عقله ، فمقدرته الفريدة على التفكير هى سبب سقوطه وانحرافه عن منهج الله .

١٣ - كل شىء يخضع للقوانين

(أ) كيف يسجد الجماد طائعاً لله ؟ (علمنا أن سجود الإنسان فى حركات نراها ؛ فماذا عن سجود الشمس والقمر والجبال .. الخ ؟) بداية نحب أن نسأل : ما هو السجود ؟ السجود هو منتهى الخضوع لله . ومعروف أن الإنسان مستوى القامة ، وعند سجوده يأتى أعلى جزء فيه - وهو الرأس - إلى مستوى أسفل جزء فيه - وهو القدم ، وهذا هو منتهى الخضوع إذ يأتى الرأس عند مستوى القدم . هذا هو السجود فى عرف الإنسان[1] ؛ أما بالنسبة لغير الإنسان ، فالسجود هو خضوع الشىء لقانونه وعدم تجاوزه قيد أنملة .

قد تهب عاصفة ، أو ربما تحدث اضطرابات طبيعية عنيفة ، ولكن هذه

---

(١) عن اختيار ..

العواصف أو الاضطرابات الطبيعية إنما تخضع لخير الإنسان ، وتمثل مصدراً من مصادر نفعه ، فمثلاً قد يحدث زلزال ، وعند حدوثه قد يكشف عن ثروة كامنة فى أعماق الأرض فكأن الحق يأمرنا : « أن تنبهوا فها هى أشياء لها قيمتها تحت الأرض وبفعل ظاهرة طبيعية مدمرة » . وقد نرى هذه العواصف أو الاضطرابات على أنها مجرد ظواهر طبيعية مدمرة لا نفع وراءها . إلا أنه بدون زلازل لا يتسنى لنا الكشف عما يكمن بباطن الأرض . وفى هذا يقول الحق - سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ ما فى السَّموات وما فى الأرض** ﴾ ثم يضيف سبحانه قائلاً : ﴿ **وما تَحْتَ الثَّرى** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وما تحت الثرى** ﴾ يمثل إضافة ذات قيمة . إن قوله : ﴿ **وما تَحْتَ الثَّرى** ﴾ يوحى بأن كل ما هو قيم ومفيد لا يكمن فقط على سطح الأرض ، ولكنه يوجد أيضاً تحت الثرى ، حتى ولو لم نكن مدركين لما تحت الثرى : أى شيء هو .. وإذا أردنا معرفة ما تحت الأرض فعلينا أن ننقب بأنفسنا ؛ هذا ، بالاضافة إلى التنقيبات التى تتم بصورة طبيعية بفعل الزلازل وما شابه مما يكشف لنا عما فى باطن الأرض .

فالبركان سوف يكشف عما فى باطن الأرض ، والبراكين - تلك الظاهرة الطبيعية المدمرة - لا تخلو من فائدة . ولا تخلو أى ظاهرة طبيعية من فائدة .

ولا يعد حدوث ظاهرة طبيعية مدمرة خرقاً لنظام السماء ، ففى حادثة كالزلزال ، تقوم الطبيعة بمهمة سبق وأن حددها لها نظام السماء . ومن بين جوانب هذه الحادثة أن تكون مدمرة .. وهذا بعض معناها . ونحن أحيانا ما ندك جبلاً أو ننحت فيه أماكن للسكنى بجانبه .. ولا يتأبى الجبل على هذا ، وهذا دليل على أن الجبل نفسه يخضع للإنسان وفى خضوعه سجود لله ؛ فـ ﴿ **كُلٌّ قد عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ** ﴾ .

(ب) واليوم يدرس العلماء علم القوى الطبيعية ، وحركة التكوين الصخرى . وحركة التربة . وهم قد اكتشفوا الحركة الدائمة لأفعال الذرات وردود أفعالها المستمرة ، وكيف أنها تبقى لمدة طويلة . وعندما كنا طلاباً اعتاد مدرسونا أن يشرحوا لنا ظواهر معينة كالمغناطيسية ، وأخبرونا أنه لكى يحدث الجذب المغناطيسى ، لابد أولاً من حدوث ظواهر طبيعية معينة ؛ ولكى يبين المدرس هذا ، أخذ قطبين من الحديد : أحدهما ممغنط والآخر غير ممغنط . ويصبح الثانى ممغنطاً بمغنطة الأول له ؛ ثم يخبرنا المدرس أننا عندما نأخذ القضيب الممغنط ونحركه بطريقة معينة ، أننا - بذلك - نرتب الجزئيات فى داخله .. إلا أننا لا نستطيع رؤية الذرات أو الجزئيات وهى تقوم بعملية الترتيب هذه ؛ فالقضيب مجرد جماد ، إلا أنه يحتوى على حركة نشطة أكبر مما نتصور .

(جـ) ولقد أراد المدرس أن يرينا - بطريقة مبسطة - كيف ترتب ذرات القضيب . فأخذ أنبوبة اختبار مليئة ببرادة الحديد ، وحرك القضيب الممغنط حول جدار الأنبوبة ، فتحركت البرادة الموجودة بالأنبوبة ؛ وعندما حركنا القضيب فى الاتجاه المعاكس حول جدار الأنبوبة ، فقدت البرادة ترتيبها . إلا أن المدرس أخبرنا بأن نحرك القضيب فى طريق واحد ، وذلك لكى نبقى على البرادة مرتبة ، وحتى تحسُنَ مغنطتها ؛ وهكذا استطاع المدرس أن يرينا الحركة داخل شيء جامد بواسطة شيء تسهل رؤيته وهو برادة الحديد . إذن ، فهناك أفعال وردود أفعال لا تراها العين المجردة ولا يمكن أن تلحظها ، ومن ثم يفتقر الإنسان إلى الوسائل التى تمكنه من

إدراك هذه الأفعال وردودها . وأنا عندما أرى قطرة دم أو قطرة ماء ، فإنها تبدو لى بلا حياة وبلا حركة ، ولكننى عندما أضعها تحت المجهر ، أجدها فى حركة مستمرة . وهذا هو الفرق بين الادراك الحسى البسيط (عن طريق الحواس الخمس) ، وبين الادراك المستعين بالمعدات والأجهزة العلمية .

(د) وعندما يخبرنا الحق - سبحانه وتعالى - قائلاً : ﴿ **كُلٌّ قد عَلِم صَلاتَه وتَسْبِيحَهُ** ﴾ ، فهو لا يعنى أن العبادة والخضوع هما ما وجد على صورة ما يفعله الإنسان فى خضوعه وسجوده ؛ فكل موجود يكشف عن خضوعه لله بطريقته الخاصة . وليس هناك شيء إلا ويسبح باسمه سبحانه . والله قد بين لنا هذه الحقيقة فى الظواهر الطبيعية حين قال : ﴿ **ولكِنْ لا تفْقَهُونَ تَسْبِيحهمْ** ﴾ .. فالمشكلة ليست فى أنه ليس لهم تسبيح أو سجود ؛ لا .. بل فى عدم قدرة الإنسان على استكناه هذا السجود أو التسبيح . إذ التصور البشرى - فى حد ذاته - لا يعيننا على أن ندرك كيفية السجود أو التسبيح .

١٤ - الإنسان : ذلك الظلوم الجهول

(أ) ما معنى العبارتين : « **يحمل الأمانة** » أو « **يأبى حمل الأمانة** » وما هى الأمانة ؟ الأمانة هى أن يعطى شخصٌ ما شيئاً ما فى يدىْ شخص آخر ، دونما ايصال فى ذمته . وأنت لو أعطيت شيئا ما إلى شخص ، وأخذت ايصالاً به ، فهذه ليست أمانة ، فالأمانة معناها تسلم شىء ما دونما ضمان به . وبإمكان الرجل المؤتمن أن يقول : إنه تسلم هذا الشىء أو لم يتسلمه . (فليس هناك ايصال يثبت ملكية ذلك الشىء لصاحبه) .

(ب) وإذا ما جاء رجل إلىّ ، وطلب منى أن أحتفظ له بعشرين ألف ريال كأمانة عندى ، يستردها وقتما يحتاج إليها . ثم آخذ الأمانة منه وأقول له : عليك أن تأتى لتأخذها وقتما تحتاج إليها . وعند قبولى تسلم الأمانة ، لا يعنينى إلا وقت التسلم إلا أننى لا أدرى ماذا سيكون موقفى عندما يأتى وقت رد المبلغ . فمن الجائز أن أرفض رد المبلغ ، كأن تحكمنى الظروف وتدفعنى إلى استخدام المال فى بعض شأنى . ومن الناس من يضعون فى ذهنهم وقت الأخذ ووقت الأداء ؛ ويقدرون كلا الموقفين جيداً ؛ ومن الناس من يقدرون وقت الأخذ فقط ، فيأخذون المبلغ ولا يفكرون فى الوقت الذى يتعين عليهم فيه رد المال ، ولا يخطر ببالهم وقت سدادهم لهذه الأمانة .

وقد يحدث أن يطلب من إنسان ما أن يحتفظ بمبلغ ما – وليكن ألف ريال – ولكنه قد يمتنع ، ويرفض بكل صراحة أن يتسلم مبلغاً كهذا ؛ فهو يرفض أن يتحمل المسئولية ، وذلك لأنه يضع فى حسبانه وقت الأداء ؛ فهو ليس متأكدًا من أنه سوف يكون قادرًا على سداد المبلغ إذا ما جاء وقت الرد . وقد يجازف شخص آخر بأنه على استعداد لتسلم المبلغ ، فيتسلمه ؛ ثم يدعى أن المال سوف يكون جاهزاً عندما يطلبه صاحبه . يقول هذا ، رغم أنه من الممكن أن تطرأ مشكلات عديدة وظروف جديدة تحول دون رد المبلغ فى ميعاده ؛ أو قد تحول دون سداد المبلغ نهائياً .

(جـ) وهكذا الحال مع الإنسان . إذ عندما خلق الله الإنسان وزود بالعقل ، فضله على الكائنات الأخرى لقدرته على التفكير والاختيار ، وأيضاً لقدرته على حسن تقدير الأشياء ومقارنتها بغيرها . ولهذا خدع الإنسان نفسه ، وزعم أن بإمكانه حمل الأمانة التى عرضها الله عليه ، والقيام على

على أحسن وجه ، وذلك من خلال قدرة عقله وفكره . ولم يعِ الإنسان أن حكمه هذا يعتمد على الظن وليس على الحق .

والإنسان يفترض أنه على صواب ، متناسياً رغباته التى تعترض إرادته ، فهو قد يفكر فى القيام بشىء ، ولكن قد تحول رغبة ما دون تحقيقه . ولم يدر بخلَد الإنسان أنه قد يكون ظلوماً جهولاً ، فهو يعرف شيئاً واحداً ، ويغيب عنه شىء آخر لم يكن له فى الحسبان ، مما يحول دون أداء الأمانة .

(د) لذا ، قالت السموات والأرض انهما لا تريدان حق الاختيار ، وفضلتا البقاء كما هما بلا اختيار ، ومن ثم بلا تكليف . إلا أن الإنسان قدر أنه يعرف كيف يقوم بالمهمة بنفسه ، ويديرها كأحسن ما يكون ، مستنداً إلى عقله الموجود فى رأسه[1] . وعندما يأتى وقت السداد (الأداء) ، يجد أنه قد ظلم نفسه ، وأظهر نفسه على أنه جهول ؛ إذ لم يأخذ فى اعتباره الفرق بين وقت الأخذ ووقت الأداء .

---

(١) ويدفعه عقله إلى الاغترار بنفسه ، فلا يضع فى حسبانه وقت الأداء .

١٥ - يحتوى ماء الرجل على كل الصيغ والأشكال الممكنة

(أ) نحن الآن نعيش فى عصر يهتم بدراسة النُّطَف ، واستكناه أسرارها ؛ ولقد كُرِّسَتْ عقول عديدة للبحث فى المنى السائل أو ماء التذكير - فى محاولة لمعرفة إلام تشير نِسَبُه : من نسبة لأخرى . وكم هو عدد سكان عالم اليوم ؟ إنه حوالى ثلاثة آلاف مليون نسمة[١] وهذا العدد الهائل إنما يأتى من خلايا صغيرة[٢] ، تملأ - فى مجموعها - ما لا يزيد عن نصف حجم الكستبانة .. ثلاثة آلاف مليون نسمة فى حجم نصف كستبانة خياطة ؟!!

ومصدر هذه الثلاثة آلاف مليون نسمة ، هو ما يسمى المنى ؛ والخلية المنوية هى التى تمثل أهمية (لخلق الإنسان) ، وليس ماء التذكير الذى يحيط بها . وفيما مضى ، كان الإنسان يفترض أن ماء التذكير يتحول إلى جسم يقذفه الذكر ، إلا أن هذا لم يكن صحيحاً .

(ب) ويتحدث القرآن قائلاً : « **نطفة من منى يمنى** »[٣]، كما لو كانت الخلية المنوية مطلوبة لكى يتم التناسل ، مع أن ماء الذكر يعيش فى السائل الذى يحيط به . ولكن ، ما حجم الخلية المنوية ؟ إنها فى حجم الذَّرَّة . وإن هذا الجسم الدقيق جداً (أى الخلية المنوية) ليحتوى على كل

---

(١) وهو الآن يتعدى الأربعة آلاف مليون نسمة (المترجم) .

(٢) وهى الخلايا المنوية .. (المترجم) .

(٣) والآية هى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ - القيامة / ٣٦.

مؤهلات الإنسان وخصائصه وطباعه ، كالبذرة التى تحمل خصائص النبات الذى سوف تتحول إليه عندما تنمو وتكبر ؛ ثم ما تلبث جميع صفاته وخصائصه أن تنتفخ ، مثلما ينتفخ البالون[1] ! فالإنسان عندما يكبر لا يضيف إلى خصائصه أو صفاته شيئاً جديداً ؟

إذ تحتوى الخلية المنوية فى داخلها على الفكر ، والعاطفة ، والأعصاب .. وكل شىء فى صورة هلاليه[2] .

وتظهر براعة الخلق كالها عن طريقين : من خلال التصغير ، أو من خلال التكبير .. فأولاً ، نحن نعلم أن الرجل الذى يستطيع صناعة ساعة فى حجم الخاتم ، إنما يكشف عن عبقريته ومهارته الفائقة . وأيضاً ، فالرجل الذى يستطيع صناعة ساعة ذات أيدٍ بطول ثلاثة أمتار ، إنما يكشف – كذلك – عن عبقريته ومهارته الفائقة ؛ إذن فهناك تفوق وبراعة وراء التكبير . فالساعة التى صنعت فى حجم الخاتم إنما تحتوى على نفس الأجزاء التى توجد فى الساعة العادية فى حجمها العادى .. وبإمكان الإنسان أن يصنع شيئاً كهذا ، وبإمكانه أن يصنع جهاز تسجيل فى حجم زرار قميص .

إذن ، فكلما تم تركيز الشىء الكبير فى صورة شىء أقل حجماً ، كان ذلك دليلاً على الدقة وبراعة التصغير . ومن هنا ، فمؤهلات الإنسان وخصائصه إنما توجد كلها فى خلية منوية واحدة تحتويها[2] بويضة المرأة ، مما يدل على عظمة خلق الإنسان .

---

(١) ويخطر ببالى الآن أن ننقل صوراً لهذه الخلية نشرح بها هذه السطور .. (المترجم)

(٢) تحتويها بعد التلقيح : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ – الطارق / ٧ .

(ج) وعندما يتأمل المرء فى الحديث النبوى ، ويجد أنه يقول — ما معناه : « إن ماء الرجل يسبق إفراز المرأة » ؛ ومن ثم نجد أن ماء المرأة ليس له علاقة مباشرة بالحمل ؛ إذ أن البويضات الصغيرة تأتى مع الاتصال الجنسى أو بدونه (فهى ليست مرتبطة بإفراز الرجل لمائه ، إذ هى موجودة فى كل حال) .

إذن ، فالعامل المحدِّد واللازم إنما هو مجىء منى الرجل . والإنسان يجد بداخله دافعاً ، ليسأل : إذن فكيف أمكن للحديث النبوى أن يقول هذه الحقائق ولما يشاهدها ؟

وسر هذا أن الله عندما أراد لعلم الأجنة أن يتقدم ؛ بدأ العلماء فى تحليل طبيعة المنى ، واكتشفوا أن المنى يحتوى على كل من الخلايا المذكرة والمؤنثة ؛ بينما تفرز المرأة الخلايا المؤنثة فقط . إذن ، فلو كان الناس قد تأملوا كلمات الحديث النبوى ، كما يجب ، لأدركوا أن ماء الذكر سابق لافرازات المرأة ، ولأدركوا كذلك أن كلمة « يسبق » إنما تستخدم إذا ما أتى القذف من مصدر واحد فقط (جامع بين خلايا مذكرة ومؤنثة) ، ولا يمكن أن يكون المصدران (المذكر والمؤنث) متعارضيْن إذ يسبق أحدهما الآخر ، فكلمة « يسبق » تدل على وحدة الاتجاه ووحدة الغاية ؛ ومن ثم فهى تدل على مصدر واحد (للإفراز) . فنوعا الماء ، إذن ، إنما يقذفهما الذكر وحده ، فما يصل منهما إلى البويضة أولاً ، يصبح مخصباً : إذن ، فلو وصلت خلية منى مذكرة أو خليتا منى مذكرتان إلى البويضة أولاً ، لأنتج ذلك ولداً ذكراً أو توأماً مذكراً .

(د) ذلك هو عالم المنى ، إذ تحتوى الخليه المنوية على جميع الخصائص والمؤهلات التى يتميز بها الرجل البالغ ، ومن ثم ، فبوسع الذى خلقها أن يتحدث إليها ، مثلما تحدث إلى الأرض ، فأجابت (هى والسموات) ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ولكى نوضح هذا نقول : إذا أخذ امرؤ نسبة قليلة من لون أحمر - مثلاً - ووضعها فى كوب ماء ، ثم رج الكوب ، فالنتيجة هى أن كل اللون الأحمر سوف يمتزج تماما مع الماء ، ولو صب هذا الكوب فى برميل ماء ، لحدثت النتيجة نفسها . وهكذا الأمر مع البحر ، فلو صب امرؤ كل اللون الأحمر فى البحر ، فكل قطرة من ماء البحر سوف تحمل آثاراً من المادة الأصلية ، وهى اللون الأحمر .

إذن ، فعندما أخذ الله أصلاب آدم ، أخرج منه الحياة التى هى أصل كل حياة موجودة فى ذريته[أ] ؛ واحتوى المنى (أى منى آدم) على كل البشر فى دقته الهائلة . ومنذ ذلك الوقت الذى بث الله فيه الروح فى آدم ، ولكل إنسان حياة يحملها من آدم ، وسوف تستمر الحياة (التى كانت لآدم) مع آخر إنسان حتى يوم البعث[1] وفى داخل كل إنسان حياة يظل

(أ) أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس (حبر هذه الأمة) قال : « مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ مواثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » .. (المترجم)

(١) وسر الخلق من الخالق ، كامن فى ما به بقاء النوع ؛ وبقاء النوع سار فيما خلفه آدم فى بنيه من هذا السر الكامن فى الأصلاب من آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . (المترجم) .

يحملها حتى ساعة موته وهكذا تستمر حياة آدم ، مع مجيء أبناء آدم ، فكل إنسان يحمل جزءًا من آدم ، وآدم فيه حيّ (بنطفته) ، وهل ماتت أصلاب آدم مع موت آدم ، أم كانت لها حياة ؟ أين ذهب المنى ؟

إنه مر إلى ابن آدم ، وظل حياً فيه .. إذن فحياة آدم تبقى فى الجميع ودونما اختيار منهم ، وسوف تتناقل ذرية آدم هذه النطفة حتى ساعة قيام البعث .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين .

ترجمة : محسن إبراهيم الدسوقى على

خاتمة

من تمام النفع – إن شاء الله تعالى – أختتم هذا العمل – المقصود به وجه الله ، ببعض ما قاله المفكر الهندى المسلم ، وحيد الدين خان بخصوص الفكرة التي دار حولها هذا الكتاب وسنورد ما قاله مع شيء من التصرف يتماشى وخط هذا البحث .

يقول وحيد الدين خان فى كتابه العظيم « الإسلام يتحدى » تحت عنوان « الحياة التى ننشدها »

« الاعتقاد بوجود الله غريزة فى الإنسان ؛ وجذور هذه الغريزة الإنسانية هى احساس البشر بحاجتهم إلى الرب الخالق . ففكرة : « الله خالقى ، وأنا عبده » منقوشة فى اللاشعور الإنسانى ، وهى ميثاق سرى مأخوذ على الإنسان منذ يومه الأول ، وهو يسرى فى كل خلية من خلايا جسمه ، وعندما يفتقد إنسان ما هذا الشعور يحس بفراغ عظيم ، وتطالبه ذاته من أعماقه أن يبحث عن إلهه الذى لم يره قط ولن يراه ......

« وليس الاهتداء إلى معرفة الله غير الوصول إلى المنبع الحقيقى لهذه الفطرة الإنسانية ، والذين لا يهتدون إلى المعرفة يقبلون على أشياء أخرى . فإن كل قلب يبحث عمن يهدى إليه خير أمانيه . وعندما رفرف العلم الوطنى لأول مرة على الأبنية الحكومية فى الهند بدلاً من العلم البريطانى : « اليونيان جاك » صباح يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ – اغرورقت عيون كثير بالدموع ، وهى ترى الصورة التى طالما حلمت بها . وكانت هذه الدموع مظهرًا لعلاقة أصحابها بالمعبودة : « الحرية » ، التى ضحوا من أجل الحصول عليها بخير أيام حياتهم .

" وهكذا عندما يذهب زعيم وطنى إلى ضريح « أبى الوطن » ، ويضع عليه أكاليل الزهور ، ثم يقف أمامه لحظة مطأطئًا رأسه ، فهو حينئذ يباشر نفس العمل الذى يقوم به المؤمن أمام معبوده ، حين يركع ويسجد ..

" وحين يمر شيوعى أمام تمثال « لينين » ويرفع قبعته عن رأسه ، ويبطىء فى سيره ، يكون هو الآخر ، مثل رجل الدين ، يقدم أحسن تمنياته إلى إلهه[1] . فكل إنسان مجبور على أن يتخذ شيئاً ما إلهاً له ، ويقدم له قرابين أمانيه الصادقة .

" ولكن الإنسان إذا قدم هذه القرابين لغير الله ، فهو يشرك بمن يستحق وحده العبادة .. « وإن الشرك لظلم عظيم » (لقمان : ١٣) ؛ والظلم أن تضع الشىء فى غير موضعه ، فلو كنت تريد أن تتخذ من غطاء الوعاء قبعة فهو « ظلم » ، والإنسان عندما يميل إلى غير الله لملء فراغه النفسى ويتخذ من غير الله ملجأ له ، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح ، ويتخذ من غريزته أسوأ أسباب الضلال .

" ولما كانت هذه الغريزة فطرية ، فإنها تظهر دائما فى صورتها الطبيعية متجهة إلى الله ، ولكن المجتمع وأحوال البيئة ، يعطيان هذه الغريزة اتجاهاً مغايرًا ، فتبدأ الشكوك تساور الإنسان فى أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك ، عمداً أو عفوًا ، لأنه يتمتع بحرية أكثر فى الحياة الجديدة ، فيرضى بها ولو ظاهرياً .

---

(١) ويقع فى هذا الشرك غير قليل من العرب المسلمين ، والمفروض أنهم مسلمون ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال – وقد استقبل بوجهه صحابته : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » .. (المترجم) .

" لقد كان « برتراند رسل » شديد العلاقة بالدين فى أول حياته ، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيسة باهتمام ، وفى يوم من الأيام سأله جده : ما تكون دعواتك المفضلة يا « برتى » ؟

فأسرع الشاب برتراند رسل يقول : « لقد سئمت الحياة ، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبى – يا إلهى ! » . وعندما جاوز برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه ، بفعل البيئة التى أحاطت به ، إلى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة فأصبح من بعد برتراند رسل الفيلسوف الملحد ، الذى لا يؤمن بالحقائق السماوية . وقد أجرت الاذاعة البريطانية حديثا معه عام ١٩٥٩ ، وعندما سأله « فريمان » – المعلق السياسى بالإذاعة : « هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الإنسان ؟ » ، أجاب رسل قائلاً : نعم ، لقد وصلت فى سن الأربعين إلى الطمأنينة التى قال عنها « أفلاطون » : إنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات . إنها عالم أبدى ، حر ، لا يقاس بزمان . ولقد حظيت فى هذا العالم بسكينة تشبه تلك التى يحصلون عليها فى الدين » .

" لقد أنكر هذا المفكر البريطانى حقيقة المعبود السماوى ، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى ، بسبب الغريزة الفطرية التى ولد بها الإنسان ، فجاء بالرياضيات والفلسفة ، وأجلسهما فى المقعد المخصص لله وحده . بل اضطر أيضاً أن يخلع على الرياضيات والفلسفة نفس الصفات التى يتصف بها الله سبحانه ، وهى : الأبدية ، والتحرر من أبعاد الزمن ، والسر فى ذلك أنه لا يمكن الحصول بدونهما على الطمأنينة التى يبحث عنها الإنسان .

« جواهر لال نهرو فى حالة الركوع ! »

لو كانت الصحف قد نشرت هذا الخبر فى يوم من الأيام لما صدقها الناس ! ولكن الصورة التى تحملها الصفحة الأخيرة من جريدة « هندوستان تيمس » ، الصادرة فى دلهى يوم ٣ / أكتوبر من عام ١٩٦٣ ، تصدق هذا الخبر . وقد ظهر فى تلك الصورة رئيس وزراء الهند الأسبق فى حالة ركوع ، واقفا أمام ضريح المهاتما غاندى فى ذكرى ميلاده ، وهو يقدم تمنياته إلى « أبى القومية الهندية » .

" إن مثل هذه الأحداث تقع كل يوم ف كل مكان من العالم ، وآلاف من الناس الذين ينكرون وجود الله يركعون أمام معبوداتهم ، تسكينا لغريزتهم التعبدية ، وذلك لأن « الإله » ضرورة فطرية للإنسان . وهذه المظاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على أنها طبيعة ، لأن الإنسان يضطر إلى الركوع أمام آخرين كثيرين ، إذا ما امتنع عن السجود أمام « الله الواحد » أى أن فطرته لن تتمكن من ملء الفراغ الذى يخلو عند انكار وجود الله ، والإلحاد .

" وليست الحقيقة أن يتخذ الإنسان آلهة آخرين عند الكفر بالله ، فيسكّن غريزته ، بل سوف أقول : إن الذين يتخذون من غير الله إلهاً محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيين ، كالطفل اليتيم الذى يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك « أماً » له .

" وكل ملحد ، مهما بدا له أو للآخرين أنه ناجح ، يتعرض فى حياته لمواجهته لحات ، يضطر إزاءها أن يفكر فيما إذا كانت الحقيقة التى قبلها - مصطنعة وزائفة ؟ « انتهى » .

..والاعتقاد بوجود الله وبحتمية الآخرة وبمجيء الرسل ، أمر من الظهور والمعقولية حتى ليبدو انكار أى واحد من هذه الاعتقادات مجرد عبث وفراغ نفس ودناءة روح وإلا فلماذا تصدق عن يقين – يا من تنكر وجود الله – أن لهذا القلم – الذى أكتب به هذه السطور – صانعاً ، وتنكر بكل مالديك من انكار أن لهذ الكون صانعا – خالقا مدبراً ؟

﴿ فإنها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾

محسن ابراهيم الدسوقى على

محتويات الكتاب